

مدرّس تحت الصفر



إبراهيم أوحسين

مدرس تحت الصفر

إبراهيم أوحسين

- لأمثالي، أولئك الذين غادروا أنفسهم ذات يوم وعجزوا عن العودة إليها إلى الأبد.

- لابنتي " ريم " شاديةً حروفها الأولى في الحياة ...

- للبشرية جمعاء..

أهدي هذا العمل..

إبراهيم أوحسين

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، أما بعد؛ فيسرنى أن أقدم للمكتبة العربية كتاب "خواطر مدرس تحت الصفر"، وهو باكورة الإنتاج الأدبي للأديب والشاعر المغربي إبراهيم أوحسين.

"خواطر مدرس تحت الصفر" هو صورة حية نابضة لما آل إليه حال التعليم في معظم بلادنا العربية، فإن كنت مغربيًا أو مصريًا أو يمنيًا أو سودانيًا، فستشعر أن ما يتحدث عنه الكاتب يمس جزءًا من واقعك، وليس بغريب عنك، حتى لو اختلفت التفاصيل. وأقول "جزء من واقعك"؛ لأن واقع التعليم في معظم البلاد العربية قد انقسم بين تعليم فاره يُقَمُّ للقادرين على دفع مصروفاته، وتعليم حكومي لا يفي بالغرض غالبًا، وإن تفاوتت مستوياته بين مناطق بلادنا المختلفة، خاصة بين الحضر والريف.

الكتاب سيرة مدرس منذ أن أخذ القرار الصعب بالالتحاق بمعهد تكوين "إعداد" المعلمين، على خلاف رغبته، واستجابة لظروفه المادية الصعبة، وتمتد عبر سنوات، ليحكى لنا عبرها حال ذلك التكوين، ثم حال مدارسنا ومدرسينا في المناطق النائية، مازجًا ذلك بصراعاته النفسية بين أحلامه وآماله التي تبخرت أو كادت تتبخر بقبوله الوظيفة، وبين واقعه الأليم الذي أبى أن يخفف عنه ألم مفارقة تلك الأحلام.

لكن الكتاب على ذلك ليس من أدب السير أو التراجم، بل هو شكل فريد من أشكال الأدب، لا هو بالسيرة الخالصة، ولا هو بالوصف التقليدي للوقائع، ولعله أشبه ما يكون بـ "يوميات نائب في الأرياف" لكاتبنا الكبير توفيق الحكيم، التي وصف لنا فيها جزء من واقع الريف المصري مطلع القرن العشرين من خلال سرد بعض القصص التي كان الحكيم شاهداً عليها أثناء عمله في السلك القضائي مطلع شبابه، وبعض تلك القصص كان يتعلق بالظروف المعيشية الصعبة التي أضطر إلى التعايش معها في الريف، وبعضها الآخر والأهم كان يتعلق بالمنظومة الإدارية الفاسدة التي تفتقد القدرة على تحقيق العدالة المنشودة للفلاحين.

وكما كانت سيرة توفيق الحكيم هي الهامش والنافذة التي استغلها لعرض واقع غير مألوف للريف والاقتراب منه، فإن الكتاب الذي بين أيدينا يرصد تفاصيل الواقع التربوي البائس من خلال أحداث حياة المعلم إبراهيم أوحسين، بأسلوب أدبي ظريف ومفيد وعميق، على قدر ما يعبر عن أحداث مؤسفة بسيطة.

من المعروف أن المغرب كسائر بلاد العرب قد خرج من فترة الاستعمار، وقد كُبل أغلب أبنائه بالجهل، وأنه قد بذل جهوداً كبيرة لنشر التعليم، وأجريت إصلاحات كثيرة بهدف تقليص الفوارق الإقليمية، لكن وفي سنة 2014 تم تصنيف المغرب ضمن أسوأ 21 دولة في مجال التعليم إلى جانب عدد من البلدان الإفريقية الفقيرة جداً، حيث أقل من نصف عدد الأطفال يتعلمون المهارات التعليمية الأساسية؛ ذلك أنه مع بقاء المنظومة الإدارية الفاسدة جاثمة لم يكن ما يُروى عن تقلص تلك الفوارق الإقليمية ونشر التعليم أكثر من حبر على ورق.

" مدرس تحت الصفر " هو تجربة حية لشاب اشتغل بالتدريس في الريف، ولا يخفى على عاقل ما يعود على الإنسان، وما يزداد به عقله عند قراءة تجارب الآخرين؛ ولأجل هذا كانت السير من أجل ما يُروى، حتى أورد الله تعالى القصص في القرآن الكريم، فهي وسيلة العقلاء للاستزادة من تجارب الآخرين؛ ليُفاد منها حسن التدبير المستقبلي، والاتعاظ من الأخطاء، والحرص على عدم تكرارها. فهل نتعظ من أخطائنا، ونحسن التدبير لمستقبلنا أم نكرس لبقاء نفس الممارسات التربوية الخاطئة؟!

لقد كنا يوماً أمة عظيمة عندما كنا نعظم العلم والتعليم، ونوقر العلماء والمعلمين. غير أن هذا لم يعد حالنا، ولعل هذا الحال ينصلح ويلتفت المسؤولون إلى أوجه الخلل ويسدونها.

د/منى أبو بكر زيتون

جمهورية مصر العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

" عجبت لحال وطني، ما بال الإنسان فيه قد تضاعل
وتهافت حتى صار في تفاهة بعوضة، ما باله يمضي
بلا حقوق ولا كرامة ولا حماية، ما باله ينهكه الجبن
والنفاق ؟ "

عن رواية " الكرنك "

نجيب محفوظ

همسة

لا نكتب لأن الكتابة اشتهاء، ولا نكتب لأنها استعلاء
على الكلام اليومي البسيط المتحرر من أبسط القواعد
النحوية والإعرابية، وعلى التعابير المتداولة صباحا
ومساء بين الناحتين في الصخر، المنكفئين حول ذواتهم
على هامش الحياة...

لا نكتب لأن الكلمات تغري بالقراءة، ولا لمجرد أننا
نريد ترصيف انفعالاتنا الداخلية وترتيبها على ورق، لنعيد
قراءتها كلما راودنا الحنين لزمان نشوئها وانفلاتها من عقال الذات..
نكتب لأن الكتابة ضامننا الوحيد لامتداد أزماننا ورفعها إلى مثابة
الخلود، ولأنها جواز سفر عبر الأمكنة والأخيلة وعبر الحدود،
وهي ما ينفخ الروح في الأشياء الملفوفة بكفن النسيان،
ونكتب _ بحدس "مارتن هايدغر" _ لأن النصوص تبقى
رغم أنف الدهر...

عتبة

لست هنا وأنا أتوجه إلى القارئ الكريم بصدد بحث أكاديمي تربوي يتقن اللعب بالمصطلحات وبالمفاهيم ذات الارتباط بالمعجم التربوي والنفسي والبيداغوجي، أثبت بعضها وأُفند أخرى. و لست أيضا في معرض سيرة ذاتية أحكي فيها تصاريف حياتي اليومية تحت عباءة مدرس. كما لست ساعيا طوال ما سيأتي إلى رسم لوحة "كاريكاتورية" تعكس مسار إنسان جرّته قدماه إلى امتهان "التدريس" لحظة لم يجد مهنة أخرى تسعف وضعه الاجتماعي البسيط. ولست أخيرا أُلّي رغبة شغفي بتسويد أوراق بيضاء، أرصف عليها كلمات وجملا كيفما اتفق. لا..لا لذلك كله عزمت على الكتابة، إنما كوني ذاك "الإنسان الغاضب" _ بتعبير "فوستو أنطونيني" _ الذي فضّل بسط غضبه حرفا حرفا، كردة فعل تجاه كل المثيرات الخارجية المحبطة والساعية على قدم وساق إلى التهوين من شأن شريحة هامة من قواعد المجتمع، وكذا تقزيم صورتها بغية، حصرها وجعلها تحت نعال السياسة والذهنيات المهيمنة. على أنني لم أتطّلع مطلقا لدر المثيرات تلك وهزيمتها، كونها أكبر مني عددا وُعدّة، فانبيرت ما أمكن لإلحاق الهزيمة بأسئلتي الداخلية المشتعلة، لأكون بهذا قد انتصرت على ذاتي، وهو أصعب انتصار كما قال "أرسطو". أسئلة كنت أطرحها وأنا على مقعد الدراسة، والآن أعيد طرحها وأنا أمام المقعد ذاته. وما بين الموقعين سعيتُ جاهدا لأقتنص الجوامع المشتركة بينهما، وكذا الأخضع الفهم لشروط فهم أخرى. في الموقع الأول جاز أن يُقال في حقي مضمون المثل الإنجليزي: "ماذا يعرف عن إنجلترا أولئك الذين لا يعرفون إلا إنجلترا؟"، أما وقد اختلف الوضع وتغيرت المواقع الآن، وشريت من كأس المرارة ما شريت، فإن فهمي على الأرجح سوف لن يقتصر على معرفة إنجلترا وحدها. بل سيتجاوز العتبات إلى ارتياد آفاق أبعد.

من جانب آخر، لم تعد البراري والأرياف اليوم ما يشغل بال المدرسين وسبب شقائهم، ولم تعد

الجغرافية المتوحشة ذاك الشبح المفزع الذي يقض المضاجع ويزرع النفوس..الأمر يتجاوز كل التفاصيل

هاته إلى محنة اعتقالهم خلف قضبان القوانين المسنونة، التي ما فتئت تترج بالعديد منهم في زنازين
الأمزجة السياسية والنقابية حيث المصالح تقسر كل شيء بتعبير "حنا مينه".

مدرس تحت الصفر في الأساس نقاش داخلي بينفسي محتدم الصراع يحاول كشف الغطاء عن
ما حوّل فئات عريضة من الممارسين في قطاع التربية والتعليم إلى مومياءات محنطة، لا تملك لنفسها
ضراً ولا نفعاً.

مدرس تحت الصفر قطعة من حياة قضيتها ومازلت أفضيها بين الحجر والشجر، واني _
للأمانة_ تَشَفَّتْ بعض الشيء فيما كتبتّه، ولم أبْ ح سوى بما يناسب مقاس الحرية الممنوحة (...). هي
تأملات حائرة بسطتُ فيها مشاهداتي المتأرجحة بين بؤس الواقع وواقع البؤس، ملقيا الضوء على قطاع
حيوي أفلس أو أوشك على ذلك، بالرغم من مساحيق التجميل الدائبة على تزيين وجهه الرسمي.

مدرس تحت الصفر خلاصة حياة أولئك الذين أيقظوا ومازالوا يوقظون عقول شعب كامل ما فتئ
متوكئاً على أقدار السماء وأساطير الجدّات، علّها تعطيه ما حرّمته السياسات الحكومية.. شعب لم يجد
سوى المدرس والفقير _ بعد انقضاء زمن النبوءات _ نَبِيُّنِ يعلمان القاصي والداني أسرار السماء والأرض..
مدرس تحت الصفر خواطر خلصتُ خلالها إلى حقيقة وحيدة مفادها أن قبور الفراعنة أرحم ألف
مرة من سجون الحجاج..

** بعض من كفاح..**

قابعاً في سجن مظلم ينذر بالموت ويضج بأجساد بشرية تترنح بين الفناء البطيء والتحلل العضوي.. هنالك.. في زنزانة مظلمة تزورها حيناً خيوط من نور..هنالك..في ركنها الضيق، كتب النازي الأول "أدولف هتلر" بين عامي 1925 و 1926 فصول كتاب "كفاحي"، موضحاً بين دفتيه فلسفته ونظريته للعالم و للتاريخ. ومع اختلاف واضح في الزمان والمكان والمقصد بيني وبين "هتلر"، شرعت أكتب فصول "كفاح" بين اغتراب الذات وشقاء أجدديات مهنة أرتني من كل لهيب جذوة، ومن كل فراغ خلوة. فصول صوّرتُها بعنوان يحمل من الدلالات ما يجعله يسري على واقع كل جندي مرابط خلف الثغور، زاده لوح خشبي أسود وطبشور كلسي ووزرة بيضاء وعالم منسي.. ومن هنا وَجَبَ أن أبدأ..

لم تكن الصدفة ما دعاني لامتحان التدريس، ولا اللهث خلف مهنة "الرسالة الشريفة والمقدسة" كما درج على السنة الناس، لا لأنني أنزع عنها معاني التشريف والقدسية، ولا لأنني أكره إفادة الغير وتزويدهم بما في الجعبة من معرفة وخبرة، بالعكس، بالتعليم كما قال "طه حسين" يحيا الإنسان كما يحيا بالماء والهواء؛ كما لم يكن الداعي إلى هذا الاختيار قناعةً مبيتةً تولدت لدي بهمس من سبقوني إليها.. لا لهذا ولا لذلك..

الحقيقة أني منتسب عن قدر سماوي وحظ اجتماعي لأسرة فقيرة هي في أمس الحاجة لكل فلس يدخل باب بيتها الصغير، الذي يضم بين جدرانه صغاراً لا يعرفون إلا لغة توفير الطعام واللباس (...). كان ما كان ورأيت من الأمور ما جعلني أفكر بعقل خالٍ من وعي رشيد وبصيرة نافذة .الحقيقة التي كانت واضحة أمامي آنئذ، أني من ستجعله الحياة _ لا الوحي السماوي _ "يوسف" إخوته، وأنني من سيحمل الصخرة عن "سيزيف"...بعدها فعلاً ألقيتُ بنفسي مغلوباً_ في غيابات الجب..وهنالك طفقتُ أنتظر

السَيَّارَةَ لعل أحدهم يرفعني ويبيعني بثمن بخس!!

اتخذت قراري ذاك عن عُمِّي وعن خرس تامِّين، لم أجد معهما اعترافا داخليا أو مبررا يخففان عني وطأة حماقة التي أقدمتُ عليها وورطتُ حياتي في تداعياتها، فكما قال "وليام جيمس": "إذا عجزنا عن الترجيح بين أمرين باستخدام العقل، فلا بد أن نلتجئ إلى القلب والعاطفة ونتحمل العواقب". ولأنكم كانت تتردد في خلدي كل دقيقة الآية الكريمة: { **وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّمَلُّكِ** }، ومع أن الأمر المتضمن للنفي هنا بادٍ وواضح، كدت أجزم أنني بما اقترفته خالفت شرائع السماء والأرض كليهما. وإذا كان علماء النفس يؤكدون أن السادي يُجمد الآخريين كي يتمكن من التحرك، فلاشك أن أمثالي قد جمّدوا أنفسهم ليتحرك الآخرون من حولهم. بتركيز شديد: مُتُّ ليعيش غيرك.. واصلت!! فلا يسع اللسان تحت نير الفقر إلا أن يكون مقيدا بتعبير اليوناني "ديوجين".

مُتُّ يَا مَلَاكُ، فَمَاذَا بَعْدُ تَنْتَظِرُ ؟ // خُذْ مِنْ هَلَاكِ وَخُذْ مِمَّا قَضَى الْقَدْرُ

النَّاسُ حَوْلَكَ فِي بَشَرٍ وَفِي دَعَاةٍ // وَأَنْتَ وَحْدَكَ بَيْنَ النَّاسِ تُحْتَضِرُ

قَدْ بَعَثَ فَسَاكَ لِلْأَيَّامِ فِي زَمَنِ // يَكَادُ صَبْرُ الرُّخَامِ فِيهِ يَنْكَسِرُ

على كل حال لن أستفيض في الشكوى كثيرا، مادام العويل لا ينفع المرء إذا قيل ما قيل وفُعل ما

فُعل. والله در المتنبّي قائلًا:

مَنْ يَهْنُ يَنْ يَسْهُلُ لِهُوَانٍ عَلَيْهِ // مَا لِحُجِّ بَمَيْتٍ إِيْلَامُ

بدايات يسيرة هذه، وتمهيد لشوط طويل في اتجاه المجهول الملتبس الغامض. رحلة لم يكن زادي

فيها سوى بارقة أملٍ وبوصلة ضلّت إبرتها اتجاه الشمال!!

** انطلقت الرحلة ..

بعدما تأكد سفري، بات كل شيء تقريباً يخطر على بالي، حتى المستحيلات طرقت ظنوني تلك. كنت بالضبط كما قال "وليام جيمس" ساخراً من فلاسفة الميتافيزيقا، أعمى يبحث في غرفة مظلمة عن قط أسود لا وجود له أصلاً!! لم أكن أتصور أنني سأشيد لذاتي غربة تشنقني ذات يوم، كما لم أكن أتصور ذات يوم أنني سأخلق مسافة فلكية تفصلني عن مسقط رأسي، وأشغى الحاضر والمستقبل بالغياب. هواجس عدة طفقت تتصادم في ذهني، وبين الأمس والغد أحاول خلق مكان بذاتي يتسع لتعايش المتناقضات هذه، التي تأبى أن تلتقي على خط واحد مُسَلِّياً نفسي ببיתי "عمر بن أبي ربيعة" منشداً:

أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الذَّرِيًّا سَهَّ يَلًا // عَوَّكَ اللهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ ؟

هِيَ شَامِيَةٌ إِذَا مَا اسْتَهَّ لَتَّتْ // وَسَهَّ يَلٌ إِذَا اسْتَهَّ لَّ يَمْطِي

استلقيت على ظهري وبصري شاخصاً إلى السقف وأسئلة تترى تتاسلت في خاطري. هل أفايض هذا العمر النفيس بحفنة دراهم أتقاضاها على رأس كل شهر؟ هل أستجيب لنداء قلة ذات اليد المُلِحِّ والمستعجل؟؟ أأزهد بالعمل في مسقط رأسي لأبحث لاهثاً وراء عالم لا يعرفني ولا أعرفه؟؟ هل أجيب دعوة القدر والحظ اللذين انتشلاني من مستنقع البطالة؟؟ هل أتجاهل نداءات أفراد أسرتي غير المعلنة، أم أخضع لوخزها المعلن؟؟ هل..؟ وهل..؟ وهل..؟ أسئلة عجزت عن الجمع بين أجوبتها بخيط منطقي ناظم يجعلها تنسلك في ذهني، تماماً كما تعجز العقول عن تفسير المعجزات والغيبيات. إن الحياة في الحقيقة مأساة لمن يشعر، ومهزلة لمن يفكر، وسعادة لمن لا يشعر ولا يفكر!! هكذا قال الأولون وقد صدقوا.

لم أفسح لنفسي المجال، ولم أعطها الوقت الكافي والمدة المعقولة لأفنعها بقرارات صائبة لا ضرر فيها ولا ضرار، بل رحتُ جازاً ظمعي الداخلي كالمجنون أسأل الرائح والغادي الأسئلة نفسها، علاني أشفَى من حيرتي اللاذعة. سألتهم فردوا عليّ بجواب وحيد تعددت صيغته وتوحدت مضامينه:

«يا أخي.. وطن هذا الذي نخطو على ترابه، وطن تعرف علاته، لا يكاد يخرج من حفرة حتى يسقط في أخرى أعمق وأوسع. وطن نهشت جسده النحيل أمراض وأعراض شتى.. الفقر والبطالة والامية والفساد سموم سرت في أوصاله كما يسري سم الأفاعي في ضحاياها، ناهيك عن أزمات ومعضلات أخرى تسبب فيها أدياء التسيير والتخطيط والإدارة. وطن منهوك هذا الذي نشرب مرارة أوضاعه مع كل شهيق وزفير، والواقع لا يحتاج على كل حال إلى شهود إثبات.

أما المسؤولون فكلُّ يدعي وصلاً بليلي، وكل يدعي من منبره السلطوي النبوة والعصمة من الخطأ والزلل.. أي وطن هذا الذي يعجز فيه الفقراء عن ضمان مكان يليق بدفن موتاهم؟؟
يا أخي، كم كنا نحفظ في صغرتنا أناشيد تحتنا على إحداث حيز شاسع للوطن في قلوبنا وأرواحنا معاً، كنا على سذاجتنا الطفولية نترنم بألحانها، بل نجتهد في استنكارها عن ظهر قلب، فننشد مرحين:

عِثتَ لي يا وطني // أرض حَبِّ وَهَنًا

عِثتَ لي يا وطني // مَهْ دَخِيبِ وَغِنَى

ليس منك أجمل // شاطِئًا وَجَبَلًا

أنت أنت الأول // وستَ بَقِي أَوْلًا

بعد طفوليتنا تلك بردح من الزمن، وبعد اصطدامنا بجدران الوطن الحقيقية، غدت أناشيدنا غير

المزيفة تُنشد هكذا :

أَرْضُ هِيَ الْحِضْنُ فِي كُتْبِي هِيَ الْوَطَنُ // عِثْنَا عَلَيْهَا وَلَا مَأْوَى وَلَا سَكْنُ

كَمْ كُنْتُ أَمْلَحُهَا شِعْوًا عَلَى وَرْقِي // وَالْحَالُ يَكْشِفُ زَيْفَ الشَّعْرِ وَالزَّمْنُ

وَقِيلَ إِنَّ بِلَادِي لِلرَّيِّ فُرْشُ // وَبَعْدَ ذَلِكَ عَلَيْهَا يَفُوشُ الْكُفْنُ

فَإِنَّ تَوَسَّمَ هَذَا الشَّعْبُ بِبَارِقَةٍ // مِنَ النِّجَاةِ لَوْتُ أَعْنَاقَهُ الْمِحْنُ

ضَاعَتْ حُقُوقُكَ يَا مَقْهُورٌ لِي: أَتَرَا // هُ كَائِنٌ فَوْقَ هَذِهِ الْأَرْضِ مُؤَدَّ مِنْ؟

يا أخي..أنت محظوظ حظَّ الأنبياء المُختارين سماويا من بين الخلائق أجمعين؛

أنت محظوظ بقُدر الذين رعاهم القُدر وأمسك بأيديهم بالغا بهم برّ النجاة؛ أنت محظوظ بظفرك على الأقل بما يسد الرمق وبما يفيك من الجوع والتعفن، فلا ترضخن أبدا لوساوس الشياطين وفاقدى الشيء؛ ها نحن أمامك، معنا من الشهادات العلمية والخبرات والمعارف ما لا يملك الساسة المتحكمون في مصائرنا عُشرُ معيشيرِهِ؛ استغلَّ ما أنت فيه، فلو عرفوا واستقر لديهم مدى عوزك وسفالة وضعك لطردوك بلا هوادة من مدينتهم الفاضلة،مادمتَ لم تطرق الأبواب المعروفة للوظيفة: المصلحة والقراية والمال.اشكر الله على نعمته وعنايته بك، وأنت أعلم منا بقول "شوقي" :

وَقُوَّةُ اللَّهِ إِنْ تَوَلَّتْ ضَعِيفًا // تَبَعَتْ فِي مَوَاسِيهِ الْأَقْوِيَاءُ

اقبل منصبك "السامي والرفيع" هذا، ولا تنس أنك منحدر من مجتمع القاع، وتذكر دوما أن الأحول في مجتمع العُميان سيء!!».

عجيب أمرنا حقا..لا أعلم ما الذي يدعو أحدنا للإجابة عن سؤال محدد المعالم بمحاضرة كاملة وباستطرادات تكفي لوحدها في تصنيف كتاب بحiale..هل أضحى الفرد المقهور لُغما قابلا للانفجار أية لحظة تُستَقرُّ فيها مشاعره المدفونة؟

لم أكن أتوقع في الحقيقة هذه الدفقة الهائلة من الإجابات، بقدر ما كنت متوقعا سماع إجابة مركزة مفادها: " أقدم أو لا تُقدم " وكفى، بيد أن الجيل الحالي _ وبحق_ كل فرد فيه بات _ بما ينضح فيه _ بركانا نافثا نارا مُحرقَة؛ وقد يبدو للقارئ أوَّل وهلة أن السطور هاته ما هي إلا حشو كلام لا علاقة لها بموضوع خواطرنا، في حين أنني صادفتُ خلال مسيرتي المهنية عدا لا يُستهان به من براكين آدمية تمشي على قدمين.فأمكنا القول_بنوع من الحذر وعدم التعميم_ أننا أمام قانون يكاد يكون ساريا على جيلنا المغبون على أكثر من صعيد.

ومع كل ما سلف ذكره، وكل ما جمعته من إجابات وحقائق ووصايا، لازلتُ في حيصَ بيصَ من
أمري فعُ دتُ وسط الجلبة تلك إلى عقلي وعاطفتي أستفتيهما في محنتي..

سَلِ الْعَقْلَ عَمَّا خَالَجَ النَّفْسَ إِنَّهُ // لِأَفْضَلُ شَيْخٍ فِي الْخَلْقِ يَسْأَلُ
فَإِنْ أَخْطَأَ التَّقْدِيرَ يَوْمًا فَسَامِحْنِ // فَلَيْسَ سِوَى الْقُرْآنِ وَحْيِ مُؤَلِّ

كنت كـ "الدون كيشوت" أصارع طواحين القدر بما أوتيته من عقل بسيط ونفس منكسرة وجيوب
فارغة وأفواه جائعة وحياة مقبلة منفتحة على المجهول؛ وكأنما يوم قيامتي حان مواعده قبل مماتي (...).

مضت الأيام على دأبها سريعة، وفي غضونها تداخلت مرامي العقل مع مرامي العاطفة وتشابكت
ككبة صوف، بعدها قطعتُ الشك باليقين وقررتُ التوجه صوب حجرة الدرس رأساً، ضارياً بعرض الحائط
كل ما ساورني من تشغيبات منطقية بعد ذلك (...). فكان هذا أسوء قرار اتخذته في حياتي على الإطلاق،
ولم أعلم بفداحة ما أقدمت عليه للأسف إلا متأخراً. ولعلنا بعد فوات الأوان نكون أمام ثلاثة اختيارات؛ إما
أن نسامح أنفسنا على قراراتنا الخاطئة ونقعد مستسلمين للقضاء والقدر، أو نهدهما ونشرع من فورنا في
تشبيد أساسات أخرى، أو نظل نبكي كالخنساء عوا لم نحافظ عليه كالرجال!! لنبلغ المعرفة كالعادة بأثر
رجعي كما يقول علماء النفس.

ببالغ الأسى والأسف، وبمشاعر ممزوجة بالخوف وبالتردد وبالهزيمة النفسية، أفشيت خبر
حصولي على مقعد في مركز تكوين المعلمين لأفراد أسرتي، وكم لبثت متحسراً على مغادرة المعهد العالي
للتكنولوجيا التطبيقية، متمنياً في رحابه أننذ مواصلة دراستي عبره في الديار الأوربية.. لكن..

هِيَ الْأَمَانِي إِزَاءَ الْفَقْرِ أُغْنِيَةٌ // تَهْدِي دَهْدِ الرُّوحِ وَالْأَمَالَةَ حَتَرَقُ
فَكَيْفَ أَسْعُدُ بِالْأَحْلَامِ فِي فَرْحٍ // وَكُلُّ بَابٍ أَمَامَ الطُّمِّ مُنْغَلَقٌ؟

لا بأس، لستُ أول من اغتيلت أحلامه وأمانيه، ولست أول من غامر بكل شيء من أجل
لأشيء.. هنا سأسمح لنفسي بالتعليق على بعض مشاعر الغبطة والفرح التي تتبعث في قلب الوالدين في
الأسر المعوزة عادة حين يحصل أحد أبنائهما على "وظيفة".

** بر الوالدين.. فهم آخر.

طبعاً، الوالدان في كل الأعراف البشرية عادة ما يعتبران ابنهما قشة نجاة يمكن الالتجاء إليها والالتكاء عليها كلما دعت الضرورة لذلك، خصوصاً عندما يبلغان حافة العمر، وقد يبدو هذا المسعى مبرراً ومقبولاً أخلاقياً ودينياً إلى حد بعيد. إلا أن نفس الأعراف كذلك تبيح للوالدين تحويل ابنهما تلقائياً_ خصوصاً حين يحصل على وظيفة _ إلى مشروعٍ مُدْرٍ للدُّخْل، أو إلى بقرة حلوبٍ جاهزة لدر النقود عند الحاجة المُلحة؛ باعتبار الأبناء استثماراً بشرياً يفتح المجال أمام الربح المادي والمعنوي. أما الريح الأول فيتجلى في الابن كرأس مال لا أقل ولا أكثر، وظيفته دفع الحاجة والعوز عن الأسرة؛ في حين أن الريح الثاني متمثل في خطوة الأبوين الرمزية التي يحظيان بها أمام أفراد المجتمع، باعتبارهما قد أفلحا في إنجاب "موظف". على هذا الأساس، وبما يفرضانه تبعا لسلطتهما الأبوية من قوانين البرِّ _ المجانبة للتشريع الديني غالباً _ تكون "مهنة" الابن ملكاً لأفراد الأسرة جميعاً، فإن شاء وانصاع فدعماً ذلك، وإن أبى وتمرد فسيطرده بلا مرية من دائرة البر والرضى والعطف إلى دائرة العقوق والسخط وغضب الله؛ وكل تغريد خارج سرب القوانين الأبوية سيكون تماماً كقضم تفاحة آدم، بمعنى المجازفة بالحصول على بطاقة حمراء تُخرج المتمرد من الجنة !!

لعل المُتداول الاجتماعي والديني من مفهوم البرِّ قد جانب الحقيقة في أمور عدة، خصوصاً لدى الآباء، الخصم والحكم في حالتنا هذه، إذ عادة ما يربطون المفهوم بما يُفهم ظاهرياً من عبارة مقطوعة ومجتزأة من حديث طويل لرسول الله (ص) القائل: "...أنت وما لك لأبيك.."، جاهلين في الوقت نفسه الأسباب الحقيقية الكامنة خلف التوجيه النبوي هذا، مُجرّدين دواعيه من سياقه الحقيقي. والكلام طبعاً موجه رأساً لمن يبخل على أبيه المعوز. وهنا تعلن حرب باردة بين الأسرة ككل وبين "الموظف الجديد"، فيتعدى الأمر ما قيل سلفاً أحياناً إلى حدود مصادرة مستقبل هذا الأخير في تحقيق ذاته وتشبيد كيانه المستقل، بل والوصاية حتى على أحلامه المشروعة. فلا غرابة إذن أن تدهم بشكل عام عقول وذهنيات مجتمعاتنا

فكرةُ "تضحية الآباء أمسِ تفضي لزاما إلى تضحية الأبناء غداً!"؛ فكيف ينسجم إذن من يعتبر الوظيفة غاية مع من يعتبرها وسيلة؟ سادع السؤال هاهُنا مفتوحاً على ما سبق، ولن أستطرد أكثر في الحديث عن عقود الآباء بإزاء عقود الأبناء، وإن كان الموضوع يستحق الخوض في تفاصيله. أما ما علاقة الموضوع بخواطر مدرس لو تساءل القارئ، فكلنا يعلم أن الكائنات البشرية تحمل أثقالها النفسية والاجتماعية أينما وَّت وارتحلت، وعصارة الموضوع ما شغل تفكير العديد وما زال يشغلهم على امتداد ممارستنا المهنية، إضافة إلى ما سيأتي ذكره لاحقاً..

** على مرافئ التكوين (2000-2002).

ألقيت بكل ما سلف خلف ظهري، وانطلقت قاصدا مركز التكوين، متحررا من كل شيء ومثقلا في الآن نفسه بكل شيء. كان المركز يحمل اسم "أبي حامد الغزالي" صاحب "إحياء علوم الدين"؛ كم استبشرنا خيرا ونحن ظننا أننا ربما سنرزق حياةً بعد موت، على سنة "الغزالي" الذي عكف على تجميع و إحياء تفاريق الدين، وبعث روح جديدة فيه، بعدما جمّدت الفهوم والمدونات الفقهية المتمذهبة في زمانه جوهر التدين النابض بالحياة؛ بيد أن البشرى لم تعد كونها جعجعة بلا طحين، وظنوننا غدت أضغاث أحلام، بحكم آليات اشتغال المركز، وبرامجه المنمطة التي سعت في الحقيقة إلى قتل البقية الباقية مما كان حيا فينا !!

ضم المركز زهاء مئتي طالب وطالبة، مع الإشارة إلى أن نسبة الطالبات تقبلا تحددت في ثلثي عددنا الإجمالي، لغرض في نفس السياسة التربوية الرشيدة..

واقصر التكوين المحدد في موسمين على حاملي شهادة البكالوريا، بعد النجاح في اجتياز مقابلات شفوية في الرياضيات و في اللغتين العربية والفرنسية. وهنا وجبت الإشارة إلى بعض المقابلات التي خضعت للتكلف الرسمي، وبعضها الآخر الذي كان خاضعا على الأرجح لقوانين الثلاثي المقدس، المال والمصلحة والقرابة. ولن شئنا التوغل في الوضوح، قلنا إن بعض المقابلات مرت في أجواء عائلية ودية وحميمية إلى أبعد الحدود، حتى أنك تكاد تعجز في التمييز بين المُتَحَنِّ وبين المُتَحَنِّ. فالقناة الأولى وقد وضعني القدر بينهم_ نوقشت في بعض ما يفترض أن يكون بجعبة المدرس، من معارف عامة نستدعيها عادة من الذاكرة المحشوة، بل ونوقشنا في ما لم نطلع عليه طيلة مسيرتنا الدراسية، بدعوى امتحان ومحاكمة "منسوب" ثقافتنا العامة، دون الالتفات طبعاً إلى مهارتنا وقدراتنا، مقتصرين على مدى إتقاننا لمبدأ (ابتلع وتقيأ)، وهذا يكفي ، فالمركز أساساً شيد لحقن هذا المبدأ في عروق المدرسين الجدد!! ومما يلفت النظر كذلك في خضم المقابلات تلك، بعض مظاهر الاحتيال والمكر والخداع، بل

وأحيانا امتدت "طفولية" بعض المُتَدَحِّين و"دناءتهم" إلى استعراض عضلات معارفهم وعلمهم، وفي أحيان أخرى تجدهم يستهزؤون بنا ويقهقهون من مداركنا الهزيلة..فمن تقدم منا بشهادة علمية سُئل عن "داحس والغبراء" ولامية "الشُّفَرَى" وعن البلاغة والبيان في خطبة "الحجاج بن يوسف" في أهل الكوفة !!، أما من تقدم بشهادة أدبية فيُسأل عن "أصل الأنواع" ل"داروين" ونسبتي "أينشتاين" العامة والخاصة وعن البنية الذرية من منظور "شرودنجر"!! أتيتُ بهذه الأمثلة طبعاً على سبيل المجاز، ولفهم عن كثب سيرورة الذهنية الممارسة على المترشحين آنذاك، خصوصاً ممن لم يتأبط صكوك الغفران المقدسة السالفة الذكر .

أما الفئة الأخرى، ذات الحظ العظيم، فكانت ممن أفاء الله عليها بنعمه الواسعة، فكانت المقابلات معها في العموم برداً وسلاماً.بعضهم لم يُسأل إلا عن حال الوالد والوالدة، وفي أعسر الحالات وأشدّها حرجاً ، يُطلب من المترشح التمييز بين العواشب واللواحم الحيوانية انطلاقاً من صورة!! مغادرين قاعة الاختبارات الشفوية بابتسامات ملؤها الرضى والغبطة؛ مُمَلِّين سلفاً بأسمى تهانئ القبول في الوظيفة الجديدة. وهنا لا بد لي أن أقف مرة أخرى مع داء نَحْرٍ ما نَحْرُهُ من عظام الدولة، وغنا من المُسلِّم به من معايير التوظيف بشقيه العام والخاص .

ما جدوى الحديث الآن عن الزبونية؟ وما الفائدة حقاً من إسالة الحبر في ظاهرة تكاد الدولة تُنشئ

لها وزارة بحيالها، تنظم شؤونها وتحرص على جودة خدماتها تجاه المواطنين!؟

** الوظيفة العمومية وصكوك الغفران.

في مجال التجارة والاقتصاد تُداولُ عبارة "الزبونُ لمِك" بشكل كبير، بل ويؤكد أهل الاختصاص أن عقل أي تاجر لا يستهويه إلا ما تحمله جيوب زينائه، كون حركية الاقتصاد ودوامها مؤسسة حتما على زبون دائم. وقد تكون هذه الاعتبارات كلها مبررة ومستساغة إلى حد كبير في قطاع المال والأعمال، أما عندما نسمح لأنفسنا بتبني هذا المنطق و باستيراد المنظور نفسه_ تحت أية ذريعة كانت_ وجعله أساس العلاقة الرابطة بين المواطن ومُشغَلِه، حينها يتحول الإنسان تلقائيا بتعبير "كارل ماركس" إلى رأس مالٍ جبانٍ يسعى للريح، دون الالتفات إلى آدمية أخيه الإنسان. ومن المعلوم طبعا بلا أدنى شك، أن الوظائف لا تُسند في الدول التي لم تبلغها الديمقراطية بعد إلا عن طريق قنوات أربع:

1_ إذا تعلق الأمر ببعض المؤسسات الخاصة ذات الارتباط بأصول أجنبية، أو في حالة تطعيم الموظفين "المزيفين" بأخرين ذوي تمرس حقيقي، لضمان لمعان الوجه الرسمي للمؤسسة.

2_ عن طريق الارتشاء ومقايضة الوظيفة بالمال، وهو ما يُنتهج غالبا، ليكون الأقدر على تكاليف شراء المنصب الأجدر به، طبعا لأنه يكون بضربة واحدة قد استوفى جميع شروط التوظيف.

3_ عن طريق "الوساطات" المبنية على المصالح الذاتية، نهج ينتهجه في الغالب ذوا النفوذ من الأعيان والوجهاء وأصحاب القرار، ليكون التوظيف مباشرة بختم وبإذن من "الأوامر العليا".

4_ عن طريق القرابة العائلية وتوريث الوظائف للأبناء وللأحفاد..

وتجدر الإشارة إلى أن التوظيف عن طريق القنوات السابقة لا يتم في الغالب بشكل مباشر، إنما وللتعبير عن نوايا المؤسسات الحسنة ونزاهتها المطلقة أمام الشعب وأمام القانون، عادة ما تلتجئ إلى حيلة المباريات الانتقائية المنظمة، غير أنها لا تحمل مصداقية حقيقية، إذ لا تعدو كونها تمثيلات مسرحية وهمية، الغرض منها إيهام الرأي العام بنزاهة المؤسسات تلك وبولائها للامشروط لمبادئ تكافؤ الفرص والديموقراطية، ومن ثمَّ إبراء ذمتها أمام المجتمع والقانون.

وهكذا لا يحق لأي كان ولأي سبب من الأسباب الطعن في النتائج المعلنة. وعلى هذا الأساس لا يمكن بأي حال من الأحوال لسوق التشغيل السوداء هذه أن تعرف الكساد يوما ما، مادام الحطب البشري متوفرا حد الفائض، ومادامت نُظِمَّ الاشتغال تُلقَن وتُستنسخ وتُورث من جيل إداري لآخر. والغريب، أن الدولة التي ينبغي عليها من المفترض التصدي بكامل عُنَّتْها السلطوية لكافة أشكال الانحرافات الإدارية هذه، هي نفسها وبمختلف دواليبها تأسست بنفس سياستي "تحت الطاولة" و"الظرف المغلق" السابقة، سالكة للأسف القنوات ذاتها. لتظل شعارات "حقوق الإنسان" فيلما آخر ينضاف إلى أفلام "شارلي شابلن" الساخرة.

(...) بعد أسبوعين تقريبا وجدت اسمي مدرجا ضمن لائحة المترشحين المقبولين. سحبتُ بياناتي ومتعلقاتي الإدارية من إدارة المعهد، تاركا الصناعة الميكانيكية إلى طبشور كلسي ووزرة بيضاء وسبورة سوداء، لاهثا خلف دراهم وظيفة أستر بها عوراتي الاجتماعية..

استأنفنا تلقي دروس في علوم التربية واللغتين العربية والفرنسية، ودروس في الرياضيات والفنون التشكيلية والتشريع المدرسي وفي العلوم الطبيعية.. كنا ندرس ثمان ساعات يوميا، تتوزعها فترة صباحية ومساءلية، تفصلهما ساعتان للتغذية وللراحة.

** في رحاب مركز التكوين.

كان مركز التكوين يبعد عن البيت مسافة ثلاث حافلات، وبالطبع اضطررت مدة عامين كاملين إلى الاستيقاظ فجرا والتأهب يوميا لمعركة البحث عن الحافلات الثلاث، وحتما باتت الحصة الأولى الصباحية موعدا لمواصلة نومي المغتصب، وموعد راحة بعد جهد جهيد أنفقه واقفا وسط زحام خانق؛ حارسا دراهمي المعدودة كي لا أعدم طبق عدس أو فاصوليا أو بيضا في الغداء.

لم أكن أزج نفسي بالتحصيل هذه الفترة بالذات من كل صباح، كان شغلي الشاغل الاستراحة أولا، واستجماع نومي المبتوث المضاع بين الحافلات ثانيا. أما التركيز والانتباه فلأراهما يأتان إلا بعد العاشرة!! ولم أزل على حالي هذه طيلة موسمي التكوين. عامان من النظريات التربوية البراقة، وعامان من الدراسات الأوروبية المستوردة تطرق أسماعنا وتملأ كراريسنا صباحا ومساءً.

عامان من " قال بياجيه" و " قال فرويد ". عامان من العمر، وأقولها بضرس قاطع، ضاعت

للأسف في اللاجدوى.. فما كانت طبيعة هذا التكوين حقيقة ؟

تتغيا البرامج والاستراتيجيات التربوية المعتمدة على مستوى مراكز التكوين آنذاك إعداد الطالب إعداداً بيداغوجيا ديداكتيكيا، وإعدادا تربويا نفييا يُوَهِّلانه للاضطلاع بكفاءة بمهام التدريس، حيث يتداخل طبعاً ما يحمل طابعاً نفسياً وما يحمل طابعاً تربوياً ممارساتياً. فالإعداد النفسي يهدف إلى التعرف على مختلف الأطوار البيولوجية المُشكِّلة لنمو الطفل، وما يُوَاصِب كل طور من تغيرات نفسية وجدانية تتحكم أحيانا في قدرة هذا الطفل أو ذاك على التعلم، كما تحدد احتياجاته ونسبة استعدادده للولوج والانخراط في متغيرات جماعة الفصل. وعليه يكون المدرس الناجح القادر على خلق جسر نفسي يصل عالم الكبار بعالم الصغار؛ بينه وبين متعلميه. أما الإعداد البيداغوجي، فيندرج ضمن ما هو تقني صرف، ويرمي إلى تمكين المدرس من طرق وآليات التدريس المتعددة، والقدرة على التكيف بينها ومُكَنِّة اختيار أنسبها حسب

ما تقتضيه مستويات المتعلمين واحتياجاتهم وإقاعات تعلمهم المتباينة. بمفهوم آخر، القدرة على تعليم

الطفل

والتفاعل معه دون حواجز وعوائق منهجية وبلا موانع نفسية قد تجعل عمل المدرس كله في مهبط الريح... ولبلوغ هذه الكفاءة المنشودة لا مناص للممارس داخل الفصل من التسلح بحزمة من نظريات تستمد مرجعياتها من علم النفس ومن نظريات تربوية عدة ومن مرجعيات بيداغوجية أساسية. فأين يتجلى إذن هذا الزخم النفسي والتربوي والبيداغوجي الموعول عليه لإنقاذ البشرية من جهل محقق؟

قيل لنا حينها بثقة صلبة: تجنبنا للتخبط وللعشوائية في ما أنتم مقبلون عليه خلال ممارستكم العملية، لا مهرب لكم من مفاتيح سحرية ينبغي أن تصطحبوها معكم فهي قمينة بفتح كافة الأقفال المستعصية أمامكم، وكذا تجاوز ما يمكن أن يعترضكم من عقبات وتحديات في صلب مساركم المهني، وهي اختصاراً: علم نفس النمو وعلم النفس الفارقي ونظرية الذكاءات المتعددة ونظريات علوم التربية التي تشمل النظرية البنائية والمعرفية والسوسيوبنائية؛ أما المرجعيات البيداغوجية فشملت بيداغوجيا الخطأ وحل المشكلات والبيداغوجيا الفارقية وبيداغوجيا التعاقد وبيداغوجيا المشروع وبيداغوجيا اللعب، وأعقبته بعد ربح من الزمن بيداغوجيا الإدماج. هكذا كان الخليط النظري الذي كنا نَجو على ابتلاعه على مدى سنتين وهذا ما كنا نقبله ذات اليمين وذات الشمال، فصرنا من حيث لاندرى حريصين أشد الحرص على اقتناء المفاتيح السحرية تلك خشية أن نقلب العالم رأساً على عقب، وخشية أن لادُّ تُهم يوماً في نزاقتنا المهنية وكفاءتنا التربوية.

لم أكن في الحقيقة أقل من شأن العلوم والنظريات تلك، ولم أكن أستهين بجدواها، ولا مشككا في نفعها. ففي آخر المطاف هي جهود بشرية "غريبة" محترمة أصحابها ومشكورة كل من بحث واستقصى ونفع البشرية بقليل أو بكثير، ولا يسعنا إلا أن نثمن كل مبادرة فكرية سعت إلى إضافة شيء جديد للحقيقة العلمية بشكل عام. لكن سؤالي الذي كان مدفوناً وسط جمجمتي وتحت حنجرتي آنذاك يمكن إيجازه

كالتالي: هل يُلزِمنا دائما ارتداء عبااء تربية صُمِّت على مقياس البنية المجتمعية والمتعلم الأوربيين؟ وهل يمكننا مسايرة تطور العالم الأول ببنياتنا البدائية ومخططاتنا المتهالكة؟؟ والتقارير الدولية الصادرة بشكل دوري عن التعليم في دول الجنوب عموما،بالإضافة لما نعيشه على مدار الساعة نحن أبناء الدار، مؤثران ماديان ودليان على كون القائمين على شؤون التربية والتعليم بهذه البلدان إنما كان هُهم التخطيط_ مع سبق الإصرار والترصد_ لبلوغ فشل "ناجح" بكل المقاييس، ولا يحتاج الأمر منا عمق تأمل للتحقق من ذلك. فحيثما يظهر العجب يبطل السبب.لكن السؤال الأكثر استفزازا حينها : هل يحتاج المدرس لزاما لهذا الكم كله من العلوم النظرية ليتمكن من تعليم الناشئة أبجديات التلاوة والكتابة؟! بتعبير آخر، هل بإمكان الترسانة المعرفية النظرية هذه تخريج أفواج من العباقرة والنبغاء والمبدعين إذا ما تم إنزال تعاليمها كما يجب؟ أم أن المدرسة ليست معنية أساسا بلعب هذا الدور،لنتقصر فقط على تلقين الألفبائية اللغوية والحسابية؟؟

** مدارس خارج أسوار المدارس !!

من المسلم به عموماً أن كل إنسان قابل للتعلم مهما كان أصله وعرقه وشكله، سليماً كان أو ذا إعاقة؛ اختصاراً نقول، تتوقف قابلية الكائن البشري حينما تتوقف حياته البيولوجية وتنتهي وظائفه العضوية، ولعل هذا المعنى ما أوماً إليه " أحمد بن حنبل" بمقولته المعروفة : "مع المحبرة إلى المقبرة"، طبعاً إلى جانب حث العقل البشري على الاستزادة من العلم كل حين قبل أن يباغته الموت. وما دامت حواس الإنسان سليمة، فهي بلا شك تكسبه القدرة على استكشاف محيطه الخارجي وسبر أغواره، بما يتيح له بالملاحظة وبالفهم وبالإدراك وبالتحليل وبالاستنتاج وبالتركيب وغيرها من القدرات المعرفية التي تتعزز بما عبر عنه عالم الأحياء "ألفرد راسل والاس" بالذكاء الكامن، أو بما عبر عنه "ديفيد هيوم" بالفاهمة البشرية، التي تشكل الحد الفاصل بين الكائن البشري وبين الكائنات الحية الأخرى؛ الفاهمة التي مكنت الجنس الآدمي منذ زمن البدايات من تسخير المعطيات الطبيعية لصالحه الشخصي، فدَجَّن وزرع وحصد، وأوى نفسه وعشيرته، وصنع ما يُمكنه من قوته اليومي ومن الذود عن مصالحه. ولما عرف نفسه وقدر ذاته ابتكر وأبدع، فبلغ بطاقته الفكرية والعقلية المحررة بنتاجه المواقب للتطور البشري حدَّ السيطرة على العالم. فأمكننا إذن وبثقة كبيرة القول إن الإنسان يولد بملكة خاصة تمكنه من خلق أشياء غير موجودة، فمن لم يبدع في الأدب أبدع في الفيزياء، ومن لم يبدع في الرياضة أبدع في الغرس والزرع وهكذا.. والقول إن الإبداع قديم قدم البشرية نفسها، وليس أمراً استحدثته واستفردت به المدارس، قول لم يجانب الصواب، بدليل الملكة الإبداعية المشتغلة لدى الإنسان قبل أن تعرف البشرية مؤسسة اسمها "مدرسة" بمئات الآلاف من السنوات.

كل كائن بشري مهياً للإبداع والخلق والتجديد في مجال ما_ كما ذكرنا_ حسب ما تقتضيه استعداداته الخاصة وميولاته الشخصية وقدراته الذاتية، وهذا بالتأكيد ما جعل الحرف والمهن والوظائف

تشهد اختلافاً وتتنوعاً، فكما يميل النجار إلى نشر الخشب وتركيبه، يميل الفلكي إلى التأمل في الأجرام السماوية دون سابق توجيه أو إعداد. والله درّ الشاعر قائلاً :

وتحسب أنك جرم صغير = وفيك انطوى العالم الأكبر

ولقد ألمع الحديث النبوي الشريف إلى هذا المعنى منذ زمن بقول النبي (ص): "... ك لٌ ميسرٌ لما خُلق له..." (الحديث). ومع هذا يجوز بلا موانع تعليم النجارة لصحفي، والبناء لإسكافي، والسباكة لرائد فضاء، مادام الإنسان قابلاً لتعلم كل شيء حتى ولو لم يبلغ حدّ التمرُّس والاحترافية. فالمرء كما يؤكد خبراء التنمية البشرية ينتج في ما تعلّمهُ، لكنه لا يُدعُ إلا في ما عشقه . وفي كلتا الحالتين هو منتج ، بلغ ذروة الإبداع أو لم يبلغ، وهذا المستوى وحده كافٍ.

ولقد طرح العديد من المفكرين والمنقّفين حسب الطرح السابق سؤال : ماجدوى الأنظمة التعليمية "المفروضة" إذا كان الإنسان قادراً على الإبداع من تلقاء ذاته ؟

وكان "إيفان إيليتش" في كتابه الشهير "مجتمع بلا مدارس" أهمّ من رفع صوته، داعياً إلى تخليص المجتمعات البشرية من المدارس، وذلك لأسباب عدة، أهمها التأثيرات السلبية للتعليم التقليدي التلقيني التي تحد من قدرات الفرد ومن إمكانياته الإبداعية، ومؤكداً أن بعض النبغاء في التعليم " يأتي نبوغهم على رغم من المدارس، لا بسببها ". ومادام الطفل مبدعاً بالفطرة، فإن " المجتمع والمدرسة يتحملان جزءاً كبيراً في تقويض هذا الإبداع كما أكد "عبد الله الجمعة" في كتابه "عظماء بلا مدارس". ومما يدعم بشكل قوي هذا الطرح، الدراسة الروسية الحديثة التي أشارت نتائجها إلى أن جميع الأطفال يملكون ملكة الإبداع، وأن ما يقارب التسعين في المئة منهم يملكون إبداعاً خارقاً حتى سنّ الخامسة، ثم تنخفض هذه النسبة بسرعة إلى أن تبلغ عشرة في المئة مع بلوغهم سنّ السابعة؛ وما إن يبلغوا سنّ الثامنة حتى تنحدر تنحدر نسبة الإبداع لديهم إلى اثنين في المئة!! أي ما يزكي إضافة إلى طرحي "إيليتش"

و"عبد الله الجمعة"، قول الفيلسوف "برتراند راسل" في عبارته الشهيرة: "إن البشر يولدون جهلة والمدرسة تجعلهم أغبياء!!".

مدارسنا - للأسف - لازالت على مذهب حقن المتعلمين بنتائج تفكير الآخرين أكثر مما تحفزهم على التفكير والنقد الذاتيين، بالإضافة إلى سجن وتسقيف فضاء التفكير لديهم - إن فُتِح له المجال - ضمن الحدود الموضحة والسقف المسموح به في الكتاب المدرسي. آنذاك، وفي ظل هذه السيرورة، يظن المتعلم، بل يترسخ لديه أن إطلاق عنان التفكير خارج دفتي "المقرر" المدرسي يُعَدُّ من الخطوط الحمراء المحظور الاقتراب منها. هذه القيود طبعاً تجعل خيال الطفل يتضاءل ويتقلص تدريجياً، فتكبح قدرته على الابتكار والإبداع، عاجزاً عن ارتياد آفاق عقله البعيدة، ليدخل مرحلة المراهقة والشباب وهو على هذه الحالة من الجمود الفكري والتخليوي والإبداعى، كما يؤكد الخبراء والتربويون في كل مكان. و جدير بالذكر هنا بعض الدراسات التي أشارت إلى مستوى الإبداع العالي لدى المتخلفين عن الدراسة أكثر منه لدى المتمدرسين، كون الفئة الأولى تحررت بشكل كامل من أغلال التفكير داخل "زنزانة" الكتب المدرسية، ومن القيود والأوامر العمودية التي يصدرها المدرسون. وقد صدق الشاعر "آرثر غترمان" قائلاً: "الذي يتعلم بالبحث مهارته سبعة أضعاف مهارة من يتعلم بالأوامر!".

طبعاً لا ينبغي أن يفهم ما أوردناه من طروحات على أننا نلّمح بشكل عكسي إلى إمكانية الخلق والإبداع بشكل يسير خارج أسوار المدارس، أو تخليهما شيئاً مَلَقَيْنِ على أرصفة الطرقات ينتظران من يلتقطهما، أكيد أننا ننفق على مسألة الإبداع المرهون دوماً بالجد والاجتهاد والكد، والمتطلب من صاحبه إلهاماً وعَرَقَ جبين بتعبير "توماس إيديسون"؛ وهي نفس القناعة التي أوردتها "فرانسيس كالتون" سنوات عدة قبل "إيديسون" في كتابه "العبقريّة الوراثية" قائلاً: "إن المبدع لا يحمل هذه الصفة إلا إذا كان في رصيده إنجاز معترف به".

ليست الدعوة إلى تحرير العقل والفكر من قيود المدارس النظامية وليدة عصرنا الحديث، بل امتدت جذورها إلى القرن الثامن عشر، بالضبط في عصر التنوير الأوربي مع "روسو" الداعي إلى إغلاق المدارس التقنينة المَطَّلَّة للعقول، منبها المجتمع الفرنسي بالخصوص إلى الضي في التفكير الفكري الطبيعي الذي كان سببا في التقدم والتطور الذي عرفته البشرية. أما في كتابه "مدارس بلا فشل" فقد عزا عالم النفس التربوي "د.و. جلاس" بنوع من الجسارة والمغامرة كل الفشل إلى المدرسة قائلا: "إنها والمدرسة وحدها، هي التي تسجل على الأطفال بطاقة الفشل!". وفي نفس السياق كذلك نتذكر جميعا مقولة "لين روبنسون": "الفكر البشري أغنى وأكثر قدرة ونشاطا مما جعلتنا أنظمة التعليم نعتقد". في الحقيقة، مما يَجِّيه الواقع بشكل فاقع، ويجعل ما قيل أقرب إلى الصواب منه إلى الهديان _ كما يدعي بعضهم _ ، سُو الذين اكتفوا واقتصروا على بنات أفكارهم ومخيلاتهم وانصاعوا لميولاتهم العفوية خارج " أوامر" الفصول الدراسية "العسكرية"، فأصبحوا بعدما ذُعتوا بالجنون والاختلال النفسي رُوادا ونماذج تُحتذى. وما كانوا أول الأمر سوى أناس قرروا الانفلات و الانعتاق من ضيق قيود المدارس وقوانينها إلى رحابة البحث وحرية التفكير. فبصموا بمداد من الفخر على صفحات تاريخ العظماء والخالدين، ناحتين أسماءهم في السجل الذهبي للإنسانية. فكان من غرائب الأقدار ومن حسن طالع بعضهم، قرارات الطرد من المدرسة الصادرة في حقهم، التي أصبحت بعد ذلك الجائزة الكبرى الممنوحة لهم عن غير قصد. والله در المتنبى قائلا :

بِذَا قَضَتِ الْأَيَّامُ مَا بَيْنَ أَهْلِهَا ۝ مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ

فهذا "أينشتاين" صاحب النسبيتين، كان دائم التأخر والرسوب في العلوم والرياضيات، واعتبره المدرسون لذلك "بطيء التعلم". و "تشارلز داروين" صاحب نظرية التطور المعروفة، كان يهرب من المدرسة مرارا ليستمتع بتسلق الأشجار ومراقبة قوافل النمل؛ و"باستور" الذي صُف كمرضى بالذهان لشدة شروده وسرحانه. أضف إلى أولئك "إيديسون" صاحب أكثر من ألف براءة اختراع _ على ما تذكر سيرته _

الذي اعتُبر أبه غير قابل للتعلم، و"نيوتن" أبو الفيزياء الميكانيكية المطلقة، والأخوان "رايت"، والفيزيائي "ميكائيل فراداي" صاحب التفسير العلمي للظواهر الكهرومغناطيسية، والرياضي المعروف "بليز باسكال"... كل أولئك وآخرون في مجالات شتى، حُكم عليهم بالطرد من مدارسهم!! ومن الجائز القول إن كل الذين نصبوا محاكمهم عبر التاريخ، وأطلقوا برحابها أحكامهم الجائرة والتعسفية الفاقدة لكل معيار علمي وبرهان منطقي ضد من نُكروا ومن لم يُذكر، إنما حكموا للأسف على أنفسهم بالغباء والحمق من حيث لم يَروا. ولكم أعجبنى الأديب "جونتان صويفت" ساخرا ومَوْفاً العبقرى بقوله: " العبقرى من اجتمع حوله أغبياء العالم بالرفض وبعدم الاعتراف؛ ولنا فى "جوستاف لوبون" و"جان بول سارتر" و"ماكس بلانك" و"غاليلي" و"كوبرنيكوس" و"سقراط" و"ابن رشد"... أمثلة حية على صدق ادعاء "صويفت". والآن، وإن كانت المدرسة غير معنية إطلاقاً بإنجاب وتخريج العباقرة والمبدعين على شاكلة من ذكرناهم أعلاه، مكتفية كما أشرنا فى تساؤلنا الأول، إلى تلقين المبادئ الأولى للقراءة وللكتابة وللحساب، مع إمداد المتعلم بتعاليم أولية فى الأخلاق، فالأمر حينها لا يحتاج قطعاً إلى موسمين تكوينيين داخل مطابخ تربية وفلسفية تَعْضُ الواضح وتَسَدِّشُكُ اليسير والبهي. وعوداً إلى تساؤلنا الأول دائماً، ما جدوى كل النظريات التربوية التى صدّعت رؤوسنا وشغلت الناس إذا كان مصير المتعلم فى تعليمنا _ كالمعتاد _ رهيناً بنقطة يحصل عليها بعد اجتياز الاختبارات الدورية والسنوية؟؟ و ما جدوى خوض عباب كلام نظري لسنتين، إذا كان أى راشد قادراً على الحكم بمنطق "النقطة" على أى متعلم، طبعاً دون الحاجة إلى أن يذفن نفسه وسط ركام من كلام منفصل تماماً عن واقعنا المفتقر لكل شيء؟؟

** بين التنظير والأجراًة..

حين يتعدّر إنبات نبتة ما على تربة أو مناخ ما، فلأن النبتة مهياًة مسبقاً للنمو والحياة على تربة وفي مناخ معينين يناسبان ويلائمان تركيبها العضوي البيولوجي، لذلك فالظروف الملائمة للإنبات شرط لازم من الشروط الإحيائية، لتبقى النبتة مستمرة في نموها العادي والطبيعي. كذلك شأن الطفل إن قُدّر له العيش وسط عوامل وشروط لا تساعد على النمو المعرفي والنفسي السليمين. إذ لا نحصل آخر المطاف سوى على كائن معطوب مثقلٍ بشتى أصناف العقد النفسية والاجتماعية؛ فالادعاء القديم بأن الإنسان ابن بيئته، لا بد أن ينطوي على قدر مهم من الحقيقة. وعلى هذا الأساس، تبقى كل النظريات التربوية و البيداغوجية المستوردة من العالم المتقدم اجتماعياً وتقنياً واقتصادياً، دون تمريرها على الأقل من مناخ و مصافٍ ضيقة العيون، لاستنباء ما يوائم بيئتنا التعليمي الهش، عاجزة عن إعطاء نفس المفعول وعاجزة عن بلوغ نفس النتائج الملموسة في بيئاتها الأصلية، حين تختلف طبعا المعطيات والشروط المهياًة لها بمنظورنا نحن. ولئن كان هذا الزخم المعرفي قدم نتائج باهرة في مسقط رأسه و مهده الأول، فهذا لايعني البتة أن نفس المدخلات بالضرورة ستفضي إلى نفس المخرجات، بالطبع إذا تغيرت الظروف التجريبية المحيطة بالتجربة، وتغيرت العينة المُعدّة لهذا الغرض. والأمر بهي لا يستدعي عمق تفكير. ففي كتابه "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" قال المفكر "مالك بن نبي": "المشروع الذي يدّ طبقاً لأفكار البعض ونقوم بتنفيذه بوسائل البعض الآخر، لا يفضي إلى شيء".

العالم الأول ليس بالسذاجة الكبيرة لينتظر مقاعد الدراسة ويدعول عليها لتصنع له المعجزات الخارقة، وينقل مجتمعاته المختلفة من الهمجية والفوضى إلى الاستقرار والنظام والرقى، منتظراً أفواج "الحاصلين على نقط عالية"، مع علمه المسبق أن مجرد الحكم على المتعلم من خلال نقط الاختبارات، هو ابتعاد تلقائي عن الغرض الحقيقي من التعليم، كما أكدت ولا زالت تؤكد الخبيرة الأمريكية "جيني

فولبرايت"؛ وهي الفكرة التي تسربت للأسف إلى أذهان بعضنا فتعششت فيها، فأصبح من المستحيل اقتلاعها. فإن كنتُ موافقاً الروائي المصري "سعيد الكفراوي" على قوله:

"التعليم أبو السياسة والثقافة والاقتصاد"، فلستُ أوافقهُ مجازفاً على فكرة كون التعليم " المدخل الوحيد للنهضة "؛ كون التعليم في ظني شرطاً لازماً لتحقيق النهضة، وليس شرطاً كافياً، واعتباره _ أي التعليم _ خيط "أريان" للاهتداء إلى شط النجاة، إنما هو اختيار يدخل في باب تحميل "المدرسة" ما لا طاقة لها به، والأمر لا يعدو أن يكون في آخر المطاف رهانا خاسرا. وقد أشرنا إلى نماذج قلبت المفاهيم الكونية وأتت بمتغيرات لم تعرفها الكتب المدرسية أصلاً، ولو صنفهم البعض في خانة "الاستثنائيين" الذين لا يتكررون إلا مرة كل قرن.

إن بلوغ المخرجات المنشودة رهين بتظافر جملة من الجهود اللازم بذلها إلى جانب ما تبذله "المدرسة"، فللمجتمع وللأسرة وللإعلام نصيب هام من النهضة الشاملة التي تتغياها كل الأمم، طبعاً تحت مباركة سامية للسياسات التي تتبناها الدول وفق رؤاها المستقبلية، فالسياسة تبقى خيطاً ناظماً يجمع الأقطاب الرباعية السالفة الذكر، بالتأكيد تحت نية تخليص البُنى البشرية عموماً من أعطابها المتراكمة، و نية السعي إلى إرساء القواعد الصلبة والثابتة لكل نهضة وحضارة قوامهما الإنسان والتراب والزمن كما عبر عن ذلك "ابن نبي". فالمجتمعات المتطورة استطاعت إلى حد كبير التوفيق بين أدوار المدرسة والمجتمع والأسرة والأجهزة الإعلامية بشكل يراعي التوازن، بالرغم من "تخصصات" هذه الأقطاب المتباينة. لتكون الدصيلة في الأخير مواطننا _ خريجُ هذه المجموعة _ واعياً كل الوعي بالدور المنوط به تجاه كل قطب على حدة، مؤثراً ومساهماً بشكل إيجابي وفَعَّال في محيطه القريب أو البعيد. بخلاف الأنظمة التي تعلق كل آمالها على المدرسة بشكل أحادي لتتقذ مجتمعاتنا من خساراتها المتكررة.

إذن، فالتفكير في استلهاج المرجعيات التربوية الغربية وزرعها كمًّا وكيفًا على تراب منظومتنا التعليمية الهشة، وجب اقتترانه على الأقل في استحضار المحيط والسياقات العامة المساهمة في إفراز

المرجعيات تلك، دون اجتزاء وعزل هذه الأخيرة والالتكاء عليها، واتخاذها طوق نجاة. بمعنى أن المواطن الغربي، إلى جانب كونه لحماً ودماً وروحاً _ مثلنا تماماً _، فإنه بلا شك "معجون" ومُشكّل بنمط عيش معين، وبتقافة معينة، وبإعلام وسياسة خاصين، وليس إطلاقاً عجيبة نظام بلده التعليمي فحسب.

إذا كان الله سبحانه قد وزع العقول بشكل عادل بين بني البشر كما قال "ديكارت"، فالبيئات الحاضنة لهذا العقل أو ذلك تختلف على الأرجح لن تكون "عادلة" مادامت البيئة تختلف من مكان إلى مكان. فالإنسان عموماً يتأثر _ بتعبير ابن نبي _ بالعوامل الثلاثة: الأشياء والأشخاص والأفكار. وخلاصة الأمر إذن، إن كل بستاني محترف مغي بتهيء التربة الملائمة للإنبات، من تَمَّ يحق له التفكير في انتقاء الشتلة الملائمة والمناسبة التي تحلو له، لأن العقل الذي يسكن في القصر، ليس كالعقل الذي يسكن في الكوخ بتعبير "كارل ماركس". ومادام الشيء بالشيء يُذكر، فلا بد أن أبعث بتحيةة إجلال وكبار لروح سيدة بريطانية أجابت عملياً عن تساؤلاتنا السابقة؛ أقصد السيدة التي استطاعت بمجهودها أن تصنع الروائية العظيمة "أجاثا ميرري كلاريسا" المعروفة على وجه الشهرة ب"أكاثة كريستي"، دون أن تطلأ قدما هذه الأخيرة مدرسة من المدارس؛ والتي يفوق عدد نسخ مؤلفاتها مع ترجماتها عبر العالم عدد الكتب العربية المؤلفة منذ عهد المأمون إلى يومنا هذا!! في حين فشلت كل المقاربات التربوية داخل مدارسنا طوال عقود مضت في إنجاب عُثر "العقّاد" و "طه حسين"!!

** في رحاب المركز ..

لم تزل دار لقمان على حالها منذ سنتين، وكأن أيامها يوم واحد تكرر؛ نحشو كراريسنا في الصباح وفي المساء بتعاليم السلوكيين والبنائيين وغيرهم، كما لم نذخر جهدا في ملئها بمواضيع رامت في الحقيقة تقزيم عقولنا ومداركنا لنتناسب تماما مع مدارك الأطفال. وكل فكرة تُدَوَّح وتغرد خارج أسوار المركز وهمومه الداخلية، فمآلها المصادرة والاعتتيال مباشرة.. ولازلنا على الوضع ذاك حتى تحققت فينا نبوءة "الجاحظ" ساخرا: "المعلمون أقل الناس عقلا، لأنهم يعاشرون الصغار نهارا، ويعاشرون النساء ليلا!!".

كانت خمس مئة درهم وثلاثة المبلغ السخي الذي تفضلت به الدولة كمنحة دراسية للطلبة المدرسين. مبلغ تطلبت هندسته وتوزيعه على مصاريف التنقل والتغذية والاستتجار البحث عن حل لمعادلة رياضية من الدرجة الخامسة بعشرة مجاهيل.. حلٌ يحتاج عقلا كعقل "هنري بوانكاريه" أو "غريغوري بيرلمان" أو "جون ناش" أو "لابلاس".. وغيرهم من علماء الرياضيات، وليس إلى عقل طالب أنهكه تعليم معطوب وقرر مدقع!!

كم كان يُظن ونحن في الحال تلك أننا شاغلون تفكيرنا باجتهادات "جان بياجيه" ، وبكلاب "بافلوف"، و بقناعات "سيغmond فرويد"؛ والحقيقة أننا كنا غارقين حد أعناقنا في هواجس وفي إشكالية تقسيم وتوزيع دربهات "المنحة" على أيام الشهر الثلاثين. طبعا حين يكون خارج القسمة "الضيبي" ثمانية عشر درهما في اليوم، ساعتئذ، تكون قسرا أمام خيارين، الأول إقناع النفس أنك عدتَ إلى زمن "عمر بن الخطاب" وبالضبط في عام الرمادة، في سقطُ عنك حد السرقة، وهذا طبعا مستحيل إمبيريقيا وإن كان ممكنا نظريا. أما الثاني فينبغي أن ينصب اهتمامك كله وتفكيرك في خلق عبارات توددية لطيفة قادرة على فعل الأفاعيل واستدرار عطف أحد الأقارب أو الأصدقاء، بغية الحصول على قرض صغير يحفظ ماء وجهك من التسول!!

كنا كأسراب الحمام متشحين البياض صباحا ومساء، و يا ويل أحدهم لو غرَّر به النسيان ولم يُبيِّض جتته، فالعقابيل حينها ستكون كارثية..طبعا ليس هذا تتصُّلا من ارتداء الوزرة بالمطلق ،إنما الاعتقاد الزائد أنها تختصر المهنة بكل تضاعيفها،فهذا أمر يحتاج لمراجعة.إذ صارت رمزا للهندام وللوقار وللخلق الحميد وللعمل الجاد في معجم حياة الإدارة والمراقبة.وإذا كان المثل الفرنسي يقول : "اللباسُ لا يصنع القسَّ"، فقطعة القماش في أعرافنا نحن تصنع كل شيء..!

أجل.. المدرس النجيب المثالي يرتدي وزرته البيضاء ويقف أمام تلامذته كالقديس مألئا عيونهم رهبة وجلالا وتقديرا. هكذا تصنع الأقمشة في عقول الصغار،وليصنع القديس بعدها ماشاء من سباب وشتم وقذف وضرب واستهزاء وتعنيف...إنها باختصار صك غفران يُبجُّ ما تقمَّ من سقطات المدرس وما تأخر؛ إنها تَلَقَّف كل ما صنعتم وما ستصنعون تماما كعصا موسى.. داوموا ارتداءها يا طلاب.. وقد دامت هذه الأوامر البوليسية تتردد على أسماعنا مدة كنا في قبضة مركز التكوين ، مُعَرَّةً مرة أخرى فكرة المظاهر الخدّاعة والواجهات الزائفة التي اعتمدتها مجتمعاتنا_للأسف_ قانونا أساسيا يحكم التصريف اليومي بين الناس..وهنا أقول:

موسينا..إذا قمتم لمشغلة== فلترتدوا الوزرة البيضاء فوقكم

الزم بياضك في بد و حاضرة== فغاية العلم أن تبوا بياضكم

العلم بالثوب أضحى في مدارسنا == وقطعة الثوب أولى من عؤلكم

هذي الجهلة جربنا أوامرنا == فكيف يغدو تراه الجهل بعنكم؟

إن صار بع ضكم بالثوب مجتهداً == فكل من ستر العورات شيخكم

كم كنا نتمنى حقا فتح حوارات ونقاشات تكون بمثابة مبضع يحاول تشريح جسد القضايا التربوية المحالة على غرفة الإنعاش؛ نتطرق عبرها لملف التعليم الضخم والشائك، والمثقل بتركته المتراكمة على ظهر بلادنا منذ فجر الاستقلال.وكم تمنينا أن نكون ذاك الجيل المتميز القادر على تحقيق الفرادة، والقادر

بشكل أو بآخر على انتشار واقعنا التعليمي المتردي من خلال ما كنا نختره من طاقة داخلية كامنة تستطيع مجابهة المستحيلات؛ بل أستطيع القول أننا كنا ككيلوغرام الفحم القادر على هزم جيش ألمانيا بأسره كما قال "أينشتاين". لكن، وللأسف الشديد، ذهبت متمنياتنا أدرج الرياح، ليلقى بها في سلة الأحلام.

ارتطمنا في الواقع بجدار فكري صلد، رُصِّفت لبناته بفكرة " لا أريكم إلا ما أرى"، مُخَرَّسٍ بخرسنة فكرية عنوانها "هذا ما وجدنا عليه آباءنا"، مطلي آخر المطاف بطلاء شعاره "أنت تريد، ولا يكون إلا ما نريد". ومادامت الجدران الفكرية "المتعصبة" عبر التاريخ أصلب كما نعلم و أمتن من الجدران الإسمنتيّة، فقد مُنينا بهزيمة ساحقة!! لنظل حائمين و طائفين حول قشور وشكليات لا تسلط الضوء على ما كان ينتظرنا لاحقا خلال ممارستنا الفعلية في الميدان، تاركين على الهامش عمق القضايا المهنية كأنها بحق لا تعني شيئا..

ملأنا الكراريس إذن بما أنجبتة عقول الغرب في مجالات التربية والتعليم، وهنا لابد أن أشير إلى أحد المؤثرين "المتعصبين" والمتحيزين للأبحاث الغربية إلى درجة تقديس كل ما بلغه الغربيون في هذا الحقل التربوي عموما؛ كأن الذي خلق لأولئك عقلا مفكرا استثنى أبناء جلدتنا منه، ليكون الفكر والإبداع وقفا وحكرا على الغربيين دونهم من العالمين. وحسب المؤثر هذا، مجرد التفكير في إمكانية هدم وتقويض هذه الفكرة، أو هذه الحقيقة العلمية في نظره، تماما كالخوض في فتنتي "الجمال" و"صَفَّين" لدى بعض العلماء المسلمين!! فهل الأمر حقيقة سائر إلى هذا الحد من السوداوية؟ وما الذي أحرنا وجعل الغرب يتقدم في قطاع التربية والتعليم؟

وهل كان "انبهار" بعض "المتعصبين" في محله؟ الأمر الذي سيحيلنا إلى إبداء بعض الآراء حول

"صناعة الإنسان" بين الشرق والغرب، لأن الموضوع يختصر في ظني كل الأجوبة.

** الصناعة البشرية بين الشرق والغرب.

منذ ظهور الإنسان على وجه الأرض، بات و لازل أكبر لغز عرفه الكون، فهو أكثر المخلوقات تكيفا مع متغيرات المحيط، وأكثرها تطورا وارتقاء في الزمان والمكان؛ ويبقى الإنسان أكثر فاعلية ووظيفية، وأقرب إلى السيطرة على بيئته في أحيان كثيرة. ومنذ القدم، تأمل الإنسان في نفسه "الإنسان"، و لا يزال على ذلك مسخرا طاقة عقله القادرة على التحليل والتفكير والتركيب والاستنتاج... وغيرها مما تفرّد به البشر من ملكات عقلية. فحين أرسى فلاسفة الإغريق أول قواعد التفكير الفلسفي المنظم والموجه، بات شغلهم الشاغل فك شيفرات الطبيعة واستنطاقها بما تتطوي عليه من غموض، وبما تخفيه من أسرار؛ كما كان موضوع الإنسان ذاته محورا هاما من محاور اشتغالهم الدؤوب، باعتباره _ أي الإنسان _ مظهرا من مظاهر الطبيعة في شموليتها. فصار في عرفهم مصطلح " الأنتلجنسيا" أو النخبة ملازما ولصيقا بالذين يحركون ويدغدغون عقولهم، أي بالذين "يفكرون". ومنذ ذلك الحين بدأ العقل البشري يأخذ مسارا تطوريا تصاعديا، فكان من الطبيعي أن تتطور الفلسفة والعلوم الطبيعية والإنسانية بشكل سريع، وبات من هموم هذه الأخيخ الكائن البشري بكل انفعالاته وسلوكاته دراسةً وتحليلاً، سعيا بطبيعة الحال إلى إدراك السبل الكفيلة للارتقاء به وتطوير إمكاناته العقلية والبدنية والنفسية ما أمكن. ومن هنا فقط يمكن أن نقول إن التفكير الجدي في "صناعة" الإنسان بدأ يخطو خطواته الأولى. فكيف يُصنع الإنسان بين العالمين "الغربي" و"العربي" ؟

الإنسان عسارة أسرة ومجتمع وثقافة، ومهما حاول المرء الاستفراء بعالم خاص به، فلا مناص له من التأثر ببعض المؤثرات الخارجية المحيطة به، سلبية كانت أو إيجابية. ومهما حاول التجرد والتخلص منها على مستوى الوعي، فإنها تكون محفوظة ومخزنة على مستوى اللاوعي، بل وتطفو أحيانا وتصدر عن الشخص على شكل انفعالات وسلوكات تلقائية _ غير متحكم فيها _ تعكس مخزونه النفسي والثقافي. وتبعا لهذا، و في مجتمعاتنا المتخلفة، فمن لازم منا وتتبع حياة طفل منذ سنّيه الأولى إلى أن

يبلغ مرحلة الرشد والنضج، فلا محالة أنه حاصل على نسخة من ملايين النسخ من إخوانه المصنوعين والمشكّلين بقلب من العنف واتباع الأوامر والانصياع للسلطة، لينشأ الفرد مكبوح الإرادة ومسلوب الحرية والإبداع، مسجوناً طوال حياته خلف قضبان هواجسه المرعبة وأفكاره السوداء.. وسط أسرة ومجتمع يقتاتان من موائد التخلف والامية كل يوم؛ حتى المدرسة، ذاك المتنفس التتوييري المضيء الوحيد، لم يخل يوماً من مظاهر الكبت والعنف ومصادرة الحريات، أولاً كون المدرس صنّيعاً هذه المنظومة "القيمية" المجتمعية التسلطية التي زرعت الخوف في النفوس بشكل متقن واحترافي، ثانياً لأن "أنظمتنا التعليمية تعلمنا أن لا نتحرر وأن لا نبدع" بتعبير "طارق السويدان".

إن الحقيقة المرة تتلخص في كون فضاءات القهر والكبت وانعدام الشعور بالحرية فضاءات لا تنتج مبدعين إلا في حالات نادرة، بل على العكس، تنتج أفراداً شائهيين ومعاقين ومعطوبين نفسياً واجتماعياً وثقافياً، يمارسون على من يليهم نفس العنف والكبت والمنطق الممارس عليهم في زمن مضى، بالتعبير الاقتصادي إعادة إنتاج نفس وسائل الإنتاج. ولكم أعجبني قول أحد المفكرين ساخرًا: "شعوب العالم كلها متجددة ومتغيرة، بخلاف شعوبنا العربية الجامدة، حيث تجد جيل الأجداد يورث نفس المعتقدات والأفكار والسلوكيات لجيل الآباء، لينقلها هذا الأخير بكل أمانة إلى جيل الأحفاد". وعلى الرغم من دعوات ديننا الحنيف ببطء الأرضية الكاملة للحرية ولنبتذ التسلط تحت أقدام الإنسانية جمعاء، لازالت مجتمعاتنا وأنظمتنا التعليمية فاقدة الوعي بتلك النداءات، ناهجة للأسف سياسة "الأذان الصماء". ولعل أبلغ شعار خلده التاريخ، ما قاله الخليفة "عمر بن الخطاب" آنذاك لأمير مصر "عمر بن العاص": "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟" تساؤل عويٌّ يبرز بقوة مدى وعي الرعيل الأول ومدى تشربهم وفهمهم للبّ الدين وللمغزى الكامن من تشريعه السماوي، بعيداً عن كل المزايدات السياسية والمذهبية والطائفية التي كانت سبباً في إفراغ الدين الأصيل من فحواه الإيماني الحقيقي، وفي تجفيف ينبوعه الصافي في ما بعد على مدى التاريخ. كانوا _ أي الرعيل الأول _ يعتبرون الحرية القيمة الأساس

الحافظة لكرامة الإنسان، بما تتيحه من أرضية نفسية تقوم وتبني عليها قيم أخرى. فلا نهضة ولا إبداع ولا تنمية ولا وعي... في مكان يفتقر فيه أفراد المجتمع إلى قيمة الحرية. ولذلك أكد المفكر التونسي "الطاهر بن عاشور" في أكثر من مناسبة على ضرورة الاعتراف بالحرية كمعطى يفرض نفسه ضمن الكليات الخمس المعروفة في المدونات الفقهية. وهذه إشارة منه للنظر إلى الموروث الفقهي من زوايا جديدة تواكب المعيش اليومي المتغير والمتجدد كل يوم، والله در الشاعر قائلاً:

حريتي هي أعلى ما أعيشُ به == وكلُّ شيء سواه كَلْهُ عَثُ

ففي موضوع صناعة الإنسان إذن أمكننا القول إن العقل وحده لا يكفي، و إن الخبز وحده لا يكفي، كون المسجون على كل حال يملك عقلاً وخبزاً لكنهما معتقلان داخل زنزانه!! ليبقى إنجاب أفواج المبدعين والتميزين مشروطاً بإعادة النظر في كافة المؤثرات الخارجية والجو العام المحيط بالفرد العربي بالخصوص_ وتمكينه ما أمكن من ظروف صحية تصلح للاشتغال ولالإبداع وللتميز. ولو سلمنا جدلاً بفكرة كون المعاناة تصنع المبدع، فينبغي التسليم كذلك، بل والاعتقاد أن التسلط وكبت الحريات يقتلان المبدع والإبداع كليهما. وهذه الفسحة من التحرر في الحقيقة ما يحتاجه أبناء مجتمعاتنا المتخلفة أكثر من احتياجهم لما هو بيولوجي، فقد قال "فيكتور هوغو": " فقط حرروا الحرية، ودعوها تقوم بالباقي"؛ ومن أجلها كذلك ترجم الزعيم "نيلسون مانديلا" نضاله الطويل في سيرته الذاتية المعروفة "مسيرة طويلة نحو الحرية".

إن التحفيز والتشجيع وتربية الفرد على قيم الحرية، مع تحرير الدوافع الداخلية الإيجابية، هي في الحقيقة المفاتيح السحرية التي تصنع الإنسان وتجعله "إنساناً" آخر، قادراً على الإسهام بإيجابية في محيطه، وقادراً كذلك على الإبداع وخلق تميزه في شتى المجالات دون حواجز كابحة. الأمر الذي تنبه له الغربيون منذ ثورة عقلايين وفلاسفة عصر الأنوار، التي حررت أوروبا الراضحة تحت أصفاد الجهل والظلمية الكنسية وتحت تسلط محاكم التفتيش لقرون عدة، تبعاً لتوجهات شعارها الجديد "عدالة - أخوة -

حرية"، إيماننا من المنظرين الأوائل للثورة هذه أن الانطلاق نحو آفاق جديدة استشرافا للمستقبل، لن يتأتى إلا بتحرير النفوس والعقول قبل إشباع البطون!! والنتيجة معروفة طبعاً، ارتقاء حضاري غربي مقابل انتكاسة عربية مقلقة، ليبقى سؤالنا القديم الجديد و الملحاح هو نفسه مهما تغيرت الأمكنة والأزمنة: "لماذا تقدموا وتخلفنا؟". والأزمة في ظني لا أراها تُتجاوز بمجرد أننا نكرر نفس الأسئلة المؤرقة، إنما بالسعي الجاد والحثيث إلى البحث عن الأجوبة السديدة والحلول الناجعة والمواكبة لسرعة عجلة التطور البشري عالمياً.

ويبقى الاقتناع الكامل واللامشروط بفكرة الاستثمار الإيجابي في "الإنسان" كثروة حضارية مهمة وكطاقة متجددة، من خلال تحرير إمكانياته الإبداعية الكامنة، لأن السماء لا تمطر تطوراً وتقدماً، ولأن التقدمين العلمي والحضاري لا يحاكيان قارة على قارة، ولا بلداً على بلد، ولا عرقاً بشرياً على عرق.. وكل التشريعات سماوية كانت أو بشرية تحثنا على الخلق والتطوير والبحث والإنتاجية، وهي الرسالة التي فشلت المجتمعات المتخلفة للأسف في تشفير رموزها.

يبقى "الانبهار" إذن بعقول الغربيين قطعاً في غير محله، كون العقول قسمة إلهية عادلة كما سبق وأوردنا، ومع ذلك، يكون الاندهاش مبرراً وذا مصداقية حينما يصدمننا العالم المصري "أحمد زويل"، مختصراً كل الأجوبة الممكنة قائلًا: "في الغرب يلتف الناجحون حول الفاشل حتى ينجح، وفي الشرق يلتف الفاشلون حول الناجح حتى يفشل!!"، وسوف لن يزيلك الاندهاش حين تسمع المفكر "عبد الله العروي" يقول متأسفاً: "بالرغم من أن الشمس تشرق من الشرق، فالنور يأتي من الغرب!!". ولن نستغرب بعد الآن من الفرق الشاسع الفاصل بيننا وبينهم، الذي صنعه بكل بساطة نظرتنا للأشياء، وآلية فهمنا ومحاكمتنا للأمور؛ أما الأهم من هذا وذاك، محاولة الأنظمة الحاكمة التخلي _ على جناح السرعة _ عن النظرة الانتقاصية التي تحملها عيونها وذهنيتها تجاه "شعوبها" المملأى والغاصة بذوي العقول المبدعة والخلقة. فحين يتحقق هذا المبتغى، نكون حقا قد وضعنا قطار النهضة والتنمية على سكتة الطبيعية،

ونكون آنئذ قد تحررنا فعليا من الفكر الماضوي الإقصائي، ومن جلايبب الأسلاف، و"من هنا نبدأ" بتعبير "خالد محمد خالد". ولكي نحصل الموضوع إذن، نقول إن الادعاء بـ"بُوهية العقل على جنس بشري أو على طائفة ادعاء طفولي مُلقَى على عواهنه، ولا يستند إلى أي أساس علمي ومنطقي، ولا يعدو كونه وهماً يتداوله المغلوبون أمام ما يتصورونه غالبا بتعبير "ابن خلدون". وصناعة الإنسان أولا وأخيرا لا تحتاج سوى وسط ومحيط مَعَمَّين ضد العنف والاستبداد بالرأي وضد قمع الحريات؛ وسط يحفز ويشجع ويثمن الرأي الصائب والفكرة الخلاقة؛ فالعمران الحقيقي عمران بشري بالأساس، بتحرير المجتمعات من زنازين الأمية والجهل والأفكار التي لا تبرح طَبْها السوداء ليأتي العمران الإسمنتي المادي تبعا للأول تلقائيا، وبكل طواعية. فلا نهضة بمجتمعات جاهلة مسجونة لا تنتج إلا الخرافة!! ولن كنتُ مخطئا في ظني هذا، فكيف نفسر ريادة وتميز بعض أبناء جلدتنا الذين ساقنهم الأقدار إلى الغرب، نبتوا هناك وترعرعوا، فأصبحوا بعد زمن رموزا وأيقونات نجاح على المستوى العالمي!؟

على كل حال، أكثرنا اللغظ والحديث في التفاهات، فصارت عقولنا متعودة على السفساف والترهات، وبات جليا لدينا آنذاك أن مرحلة "البكالوريا" _ إن صح التعبير _ كانت عصرنا الذهبي المأسوف على ضِيئه، حيث ازدهرت فيه عقول الطلاب بالتفكير وبالبحث وبالاجتهاد، على الأقل في ما كان يُدرّس لنا، قبل الولوج إلى عالم كل شيء فيه مؤسس على الارتجال وعلى "قال فلان" و"قالت فلانة"، كمثل قصر مَهيبٍ شُيّد على رمال متحركة... فلا المؤطر المسكين كان يدري ويفقه ما يردده من تلك النظريات المشفرة، ولا الطالب بدوره كل يملك اللياقة العلمية والأهلية الفكرية لغزلة ما يُقال، فمن نافلة القول أن نعترف أن أسوار المركز كانت تستر جهلنا المركب طلبية ومؤطرين على السواء.

إن أية نظرية أو فكرة كيفما كانت، في الغالب، لا يستوعب تفاصيلها ولا يجيد تفكيكها وإيصالها إلى المتلقي دون لبس وغموض سوى الذي صدرت عنه، وشكلتها بنات أفكاره؛ وقلت "في الغالب" لأننا نعرف جميعا أن "داروين" نفسه قد أشكَل عليه تفسير بعض الجوانب من نظريته، خصوصا ما يتعلق بفكرة

الانتخاب الطبيعي في الماكرو-تطور، كما يُحكى أيضا أن الفيزيائي "ألبرت أينشتاين" كان أستاذا فاشلا، إذ لم يستوعب نسبتيه كما استوعبها "أينشتاين" نفسه إلا ثلاثة أشخاص!! وهو القائل: "إذا عجزت عن شرح فكرة لطفل في السادسة من عمره، فأنت أصلا لم تفهما!!". وهكذا تفقد كل فكرة أصيلة أصالتها وبعضها من عناصرها الرئيسية كلما انتقلت من لسان لآخر، ومن قراءة لأخرى، ومن تأويل لآخر؛ وفي آخر هذه السلسلة من "الخيانات" غير المقصودة نحصل على أشلاء أفكار ممزوجة باجتهادات شخصية، تجعل الفكرة الأم تتلاشى قواعدا المتينة ليضيع جوهرها في آخر المطاف. فحتى الأفكار التي نستوردها ترتد بشكل عكسي على من يخونها فنتقم منه بتعبير "مالك بن نبي".

** أطفالنا وأطفالهم..

دلفنا إلى عالم الطفل الصغير والمعقد، محاولين استكناه حركاته وسكناته، وتفسير آلية إدراكه الأشياء وآلية تفكيره، مستدين بالكاد إلى معرفة مراحل نموه النفسي والعقلي الموازيين_ إن لم يكن ثمة خلل في النمو_ لنموه البيولوجي. تماما هذا ما كنا نُدندن حوله، لكن طبعا ليس عن طريق الممارسة البحثية و التجريبية الذاتية المرتبطة بأطفالنا في علاقتهم وارتباطهم بعالمنا وظروفنا نحن، كلا، إنما عن طريق تسويد الصفحات بقال "بياجيه" وقال "بافلوف" وقال "فرويد"..ولا مجال حتى لمناقشة آراء وأفكار "أنبياء" العلم أولئك، كأنما كنا نتداول نصوصا إلهية نزلت من السماء!! فلو سلا منا بحجبة ما تحصل لدى أولئك من نتائج، خلال تجارب أقيمت على عينات أطفال فرنسيين وبريطانيين وألمانيين و...فهذا لا يعني حسب ظني الحصول على نفس النتائج إذا تعلق الأمر بعينات أطفال مداشر وقرى الأطلس الكبير وقرى جبال الريف..

إن الأطفال وإن كانوا نوات مستقلة وعوالم منفردة على مستوى المعمور كله،بل، وإن كانت البيولوجيا البشرية هي ذاتها تتكرر في كل جسد بشري_ مع اختلافات طفيفة طبعا_،ومع هذا كله،فإن الطفل يرتبط ارتباطا وثيقا بمهده وبمحيطه القريب، مبادلا مظاهر التأثير والتأثر بين ذاته وبين عالمه الصغير؛ وهنا وجه العجب والاستغراب..ألم يدرك المؤطرون آنئذ أن بعض النتائج العلمية إن كانت صحيحة وصالحة في ظروف ما، فإنها في الغالب لا تصح ولا تثبت في مواطن وظروف مغايرة تماما ؟ أكانوا جاهلين حقيقة القوانين التي لا يجوز في حقها الثبات والدوام على حال واحدة ؟ فلو كنا نتفق على إمكانية ثبات بعض القوانين الفيزيائية والرياضية البحثية في كل الأمكنة والأزمنة، فحتما لسنا مضطرين للإجماع على صحة نتائج مترتبة بالنفس البشرية التي وصفها الفيلسوف "ميشيل دي مونتيني" بأنها:"أصعب وأعقد ما يمكن الإحاطة بدراسته،لأنها متقلبة باستمرار".هذا والإنسان تحوطه بيئة ومعطيات تكاد تكون مستقرة، فكيف يكون الأمر إذن وقد انتقلنا إلى ضفة أخرى، حيث تختلف المعطيات والظروف

تماماً كماً وكيفاً ونوعاً؟؟ أما الأدهى من هذا وذلك، دعوة بعض المؤطرين إيانا إلى الالتزام التام بما
تضمه دقّتا كراريسنا، أولاً لأن ما جمعناه خلال سنتين من عُدّة تربية ونفسية بمثابة معالم طريق تتيح لنا
الاهتداء إلى أنسب السبل لولوج عوالم أطفال العالم بأسره؛ ثانياً كون "فرويد" و"بافلوف" و"بياجيه"
باختصار شديد علماء لا يلعبون بالنرد!!

مرت الأيام أمام ناظرينا، ولم تزل دار لقمان على حالها، وما من أحد سوّلت له نفسه إطلاعنا
وفتح أعيننا على الواقع الحقيقي لتعليمنا خارج أسوار المركز، أو بمعنى أدقّ، في المغرب العميق بتعبير
"بول باسكون".

** بوصلة مفقودة !!

مضت السنة الأولى ونحن لا نزال في برجننا العاجي، نظن الدنيا بخير، كما كنا نظن أن منظومتنا التعليمية ب "صحة وعافية"، بل كنا نسمع من بعضهم سامحهم الله_ كما عودتنا النشرات الإخبارية اليومية، أن التعليم ببلادنا تطور بشكل كبير وسريع خلال العشرية الأخيرة، نظرا لجهود الدولة المادية والمعنوية المنصبة على قطاع التربية والتعليم، باعتباره رأس المال الحقيقي الذي تفخر به الشعوب. كان كل مؤطر كأنما يسترزق من أكاديميه، مصداقا لقوله سبحانه: "وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون"، أو كالشيطان الذي تحدت وظيفته في توزيع الأمل والإغراءات والوعود المزيفة، فطفقنا ننتظر بشغف كبير متى ننعم بالجنة الموعودة الرابضة في تخوم الوطن؛ والله در جميل بثينة قائلا:

ما أنتم والوعودُ التي تَعِدُونَا == إلاَّ كَيِّقٍ سحَابَةٍ لَمْ تَمُطِرْ

لكن هذا بالطبع لم يمنع على سبيل الندرة والجرأة بعض الفضلاء من التلميح أحيانا إلى بعض الملفات والقضايا "المتعفنة" وتقاسم روائعها الننتة، وإن كان ذلك من باب الإلماع والإشارة، دون التعمق الجبّي في دهاليزها. وحاصل القول، أننا كنا طوال موسم تكويني كامل كالريابنة الحمقى الذين انطلقوا من البحر الأبيض المتوسط، قاصدين الإبحار شمالا في اتجاه روسيا، ومع جهلهم لقوانين الملاحة ولأسرارها، أبحروا جنوبا، ليتفاجأوا بعد حين بِسُورِ سواحل أفريقيا، فالتبس عليهم الأمر من شدة العجب، أخطأوا حقا وجهة الإبحار، أم هي "روسيا" التي احترقت وأحرقت معها كل شقوها؟! أوليس العلم بالشيء يجعلنا عموما نتلافى الأسئلة المحرجة والساذجة!؟

أما السنة التكوينية الثانية فاختلط الحابل فيها بالنابل، وبهذه العبارة أختصر مجمل ما كان يحدث داخل وخارج المركز. فقد أحدث "التكوين العملي"، كما هو متداول بيننا، ارتباكا صارخا واختلالا في موازين السير العام التكويني. إذ كان من المفترض المزوجة بين ما هو نظري بما هو عملي، بغية تثبيت وتعزيز هذا بذاك؛ لكن الغرابة مرة أخرى أن يلعن وينسخ "النظري" أخاه "العملي"، والعكس بالعكس، لنكون

في خضم هذا التناكد والتناقض ضحايا أمزجة وأهواء لا تجمع بينها لا أهداف مشتركة ولا رؤى موحدة. فعندما نكون فاقدين لبوصلة نهدي إليها، ونستند للعشوائية وللارتجال، حينها يصبح كل طريق نحو "اللاشيء" ممكنا وساريا بلا شك.

تمَّ تجميعنا إلى زمر من خمسة أفراد، على أن تختار كل مجموعة مؤسسة تستقبلها لاستئناف التدريب على تقديم الدروس العملية، وذلك بمعية وبمساعدة ما كنا ندعوه بـ"المعلم المطبّق"، باعتباره ذا خبرة كافية تجعله مرجعا موثوقا به في مجال التدريس. ولعل هذا اللقب الرسمي نموذج بسيط يُزكّي فعلا حقيقة أننا أقوام "تسمع" و "تطبق" في الحال، دون الحاجة المُلحّة إلى مرحلة انتقالية بين "السمع والتلقي" وبين "التطبيق والتنفيذ" اسمها "التفكير". و يبقى النموذجي والمثالي كالعادة في أعرافنا هو ذلك "العسكري" الذي يتلقى الأوامر والتعليمات لينبري بعينين مغمضتين، وعلى جناح السرعة ليضعها حيز التنفيذ والتطبيق، دون أن يمنح نفسه فرصة للتفكير و لمراجعة ما تأبطه من أوامر!! وفي هذا يرى "رينيه ديكارت" أن المهم ليس في تملُّك عقل جيد، بل في استخدامه بنحو جيد..

وضع المسؤولون على الجانب التربوي خلال الموسم التكويني العملي نظاما خاصا وخطة تهدف إلى تقوية الجانب النظري وتعزيده بالجانب العملي، سعيا إلى ترسيخ ما كنا بصدد تجميعه في السنة الأولى، وإلى إنقاذه ما يمكن إنقاذه من أهداف تربوية لم يتم بلوغها أو تم إغفالها أثناء إرساء المدخلات النظرية. فما حقيقة هذا التكوين "العملي" إذن ؟

** في خضم التكوين العملي..

قد تغري هذه المصطلحات والعبارات لأول وهلة سامعها خارج أسوار المركز، لِمَا تُشئهُ من نبرات موسيقية تُشَفُّ الأذان. "الأسبوع النظري" و "الأسبوع العملي"، أسبوعان يُظن بمجرد سماعهما أنهما فترتان زمنيّتان امتلأتا جهدا وعملا وبحثا وتجربيا ومناقشات علمية هادفة و ورشا تربية مؤطرة و...و...و...لكن، كم تخبئ الأسماء القوية ضعفا خلفها، وكم تخبئ الأسماء العلمية أحيانا جهلا وتخلفا، تماما كما تستر الثياب الفخمة مخازي الإنسان وعلاته. وفي هذا المعنى أذكر أن "كنزة أم شملة" قالت في هجاء "مي" صاحبة "ذي الرمة" :

على وجه مي مسحاً من ملاحه == وتحت الثياب الخزي لو كان بائيا
ألم تر أنّ الماء يظف طعمه == وإن كان لون الماء في العين صافيا
إذا ما أتاهُ واردٌ من ضرورة == تولى بأضعاف الذي جاء ظاميا
كذلك مي في الثياب إذا بت == وأثوابها يخبين منها المَخازيا

يُنتظر طبعاً من الطالب خلال الأسابيع العملية تقديم الدروس، مُغطّياً جميع مستويات المرحلة الابتدائية، وذلك تحت إشراف مباشر للمدرس الرسمي لكل مستوى، بغية الوقوف على سير العملية التعليمية التعليمية عن كثب. وهنا فقط تبدأ رحلة تحمّل مسؤولية كائنات بشرية متعطشة لكل شيء فقدته في الأسرة والمجتمع على السواء. على أن تكون العودة إلى "المختبرات" النظرية بعد أسبوع عملي، لتدارس ما راج داخل الحجرات الدراسية، ومواكبته بالتحليل والتشخيص والتعديل. أما مسألة النقد وإن كان بناء فغير مسموح به، كونه كبيرة من الكبائر!!

اقترحتُ على فريقنا اختيار إحدى المدارس بحكم قربها النسبي من مقر إقامة أغلبنا؛ وفي الحقيقة لم يكن اختياري هذه المؤسسة بالذات بريئاً، فلقد تحالَى عليّ الحنين وحركَ ما في ذاكرتي من مواقع راكدة

وساكنة، فِيمَتُ شَطْرَهَا مع جهلي التام بما كان يجزني إليها بشدة. وأراني الآن ملزما إلى حد كبير

بالغوص نوعا ما في جواب سؤال: لماذا يحن الإنسان إلى ماضيه ؟

** في زلزلة الحنين..

الإنسان ماضٍ وحاضر ومستقبل، طبعاً إذا جاز لنا تقسيم الزمن إلى هكذا تقسيمات ساذجة وغير دقيقة، فالزمن حسب أحدث النظريات الفيزيائية لا زال لغزاً محيراً. لكن على كل حال سنستمر على افتراض صحة ما قلناه على أساس التبسيط وتيسير الموضوع.

الماضي قطعة زمن عايشنا لحظاتها البارزة والثانوية، وهي لا محالة الفترة الأطول في مساحة أعمارنا، بالتأكيد، لأن أية لحظة تُعاش لا تلبث أن تتسرب إلى ركام الماضي، فنتفقت بسرعة ليستحيل استردادها، أما الحاضر فمدته لمُح من البصر أو أقل، هو مرحلة الإنجاز والعمل والتفكير الآني واللحظي، في حين أن المستقبل يبقى قيد أحلامنا وأفكارنا ومخططاتنا، باعتباره مرحلة زمنية لم تُترك؛ فإن وافقت أفكارنا ومخططاتنا الواقع، وأصبحت قيد التشييد والأجراً، ساعتئذ يمكن فعلاً أن نتيقن من أننا أدركنا وبلغنا، بل وعشنا المستقبل تماماً كما رسمته آمالنا. والإنسان بهذا المعنى إذن يعيش ماضيه أكثر مما يعيش حاضره ومستقبله، لذلك ربما يكون الحنين إلى الماضي سُوءاً ومعقولاً، مادام يشغل المساحة القصوى والشاسعة من زمن وعوِّ كياننا الذاتي. وعندما نتتبع أشكال الحنين البشري، فحتماً سيجد كل واحد بدواخله حنيناً إلى شيء ما مُترامٍ داخل الماضي القريب أو البعيد؛ منا على الأرجح من يحن إلى مسقط رأسه بعدما يكون المستقبل قد ألقى به في مكان بعيد؛ ومنا من يحن لأصدقاء الحارة ولللألعاب البسيطة الطفولية؛ ومنا من يحن لدفاتره القديمة وشغبه الأدبي الأول الساذج؛ ومنا من يحن لأفلام الأبيض والأسود السريعة كما كانت تعرضها علبة "إيديسون" السينمائية. ومنا من حنَّ بكل بساطة لخبز أمه ولقهوتها جرياً على سُنَّة "محمود درويش". كلُّ إذن يجر خلفه حنيناً شخصياً لشيء ما بات من مخلفات الماضي المستعصي على القبض. وهذا ربما ما يفسر شغف الإنسان إلى السفر إلى الأمس ومحاولة استعادته، ولو على مستوى الخيال المدغدغ للذاكرة. ومن الراجح أنه كلما كانت تَرَكَدُنا المُراكمَة ثقيلة عاش الماضي بداخلنا أكثر مما يعيش فيه الحاضر والمستقبل. ومن جهة أخرى، يشغفنا الماضي حُباً

ونتوق لاستعادته، لا لأن حاضرننا في الغالب يكون أسوأ حالا من مواضينا، فالعكس هو الحاصل أحيانا، إنما حب عودة الذات إلى ماضياها نابع من حب الإنسان للأشياء المفنقدة، مهما كانت قيمة هذه الأشياء وأهميتها؛ فالفقدان والغياب حسب رأيي يشكلان السر وراء الحنين لشيء أو لحدث مرَّ أمامنا ومضى إلى غير رجعة. ألسنا نرى الناس لا يذرفون الدموع، ولا يذكرون فضائل وشمائل المرء إلا بعد وفاته، كأنما لم يكن حيا ذات يوم؟؟ ألسنا نلمس رغبتهم في بعث الفقيد من جديد واستدراك ما كان من تفريط وتقصير مقصودين أو غير مقصودين؟؟

لله در الشاعر قائلا :

المرءُ إن كان حيا يُستهانُ به == ويظُم الرُّزءُ فيه حين يُقدُّ

إن الأشياء والأحداث في الحقيقة تستمد قيمتها الاعتبارية، أولا من ندرتها وصعوبة الحصول عليها _ كما تورّد نظرية القيمة_، ثانيا من غيابها وتواربها عن الأنظار، كاللوحات التشكيلية والأعمال الفنية والأدبية عموما تَغُو ثمنا بعد وفاة وفقد أصحابها. فمن غريب الصدف أن يكون الموت بكل بساطة قادرا على منح الحياة الأبدية للأشياء بعد أفولها، كأنما يمنحها بطاقة هوية أخرى تتيح لها الخلود مدى الأزمان. و لتكثيف الموضوع، نقول بلا أدنى حريجة، إن الماضي سواء أُبطنَ في جوفه السواد أو أبطن البياض، ومع كونه زمنا فانيا، تبقى خبياته وانكساراته وكذا انتصاراته حوافز داخلية نستزيد منها العزم والهمة، وفي كليهما _ الخبيات والانتصارات_ ما يخدم مصالح الإنسان المستقبلية. وعلى هذا الأساس إذن، وإيماننا من بالزمن القديم، بتعبير "كونفوشيوس"، انبعث الحنين لأول مدرسة وطنتها قدامي.

أنهينا مع الجهاز الإداري في المركز ما يتعلق بالوثائق القانونية، واتجهنا صوب المؤسسة

المستقبلية ومعني من الشوق للجلوس في مقعدي الأول ما تنوء به الجبال.

استقبلنا من لدن المدير والمدرسين بالحفاوة والترحاب المطلوبين. وما هي إلا نظرة خاطفة من

بعض المدرسين حتى تبينوا ملامحي، بل وبعضهم تذكر اسمي الذي لم تُلْفُظْهُ شفاه منذ ثمان

سنوات! حينها عرفت أنني "يُوتِينِي" الملامح، أي ممن حافظ على ملامح الصغر مهما تقدّمتُ في السنّ.

لم يتغير شيء في مدرستي الأولى بعد هذه السنين كلها، إلا بعض المدرسين الآخذين في الترنح والاستسلام لوطأة الهرم والضعف. ما عادت هُمهم ونشاطاتهم في همة ونشاط جماعات النمل والنحل؛ شاببت رؤوسهم ولحاهم، فغنّوا مجرد رموز وتمائيل وُصِبَ تذكارية تُلقَى أمامها التحايا وتُرفع أمامها القبعات اعترافا بتاريخهم الطويل مع النضال التربوي والاجتماعي. وماذا _ في نظرك _ يُضِلُّ ويتبقى من مدرس بعد عمر متعب داخل حجرة التدريس سوى شيبٍ وضعف ووهن وشتات من ذكريات هنا وهناك؟ طبعا إن أسعفته الأقدار ب"احتياطيّ إدراكيّ" كافٍ قبل أن تُداهمه مصيبة النسيان المُبكر، وتتنازل ذاكرته عن كل شيء.. وما نصيب هذا الجندي "المجهول" من سنوات مكافحة الجهل وتفنيح العقول وتعليم الصغار أبجديات الحياة الأولى غير التجاهل والتهميش وغمط الحقوق، والإجهاز عليه بشتى ألوان وأشكال النكران؟! ولن نخوض في هكذا موضوع، كون وسائل الإعلام غير الرسمية تكفينا الآن مؤونة كتابة وسرد كلام طويل. وقد صدق "المتنبي" قائلا:

وليسَ يَصِحُّ في الأفهامِ شيءٌ == إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلٍ

** العلم تشريف وتكليف..

مُذُ عرفت البشرية جمعاء معنى العلم والتعلم، بوأت صاحب العلم ومعلم الناس مكانة خاصة لم يبلغها حاكمٌ أو جنديٌّ أو طبيبٌ أو ...، فالمنكورون هم في آخر المطاف صنيعته، وكانوا يوماً ما من تلامذته. فمنذ العصور الأولى، نجد الأنظمة الحاكمة التي تحترم نفسها لا تقطع برأي وبقرار مصيريّ يهم الدولة إلا بعد استشارة العلماء والمفكرين وذوي الحظوة الثقافية بشكل عام، باعتبارهم الدعائم المتينة القادرة على رفع سقوف الأمم ومنعها من السقوط، وكان العامة كما الخاصة يأترون بأوامر هذه الفئة وينصائحها بلا قيد ولا شرط. فلم تجتمع لقبيلة "بني شيبان" مثلاً، إبان الإعداد لمعركة "ذي قار" ضد الفرس تلك الجيوش الوافدة من قبائل شتى إلا بإيعاز من شعراء "بني شيبان" وحكمائها. ولم توقف مصر زحف التتار إلا بعدما شحذ سلطان علمائها "العز بن عبد السلام" همم الجيوش ورفع من عزائمهم. ولم تبلغ أوروبا ما بلغته الآن سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وعلمياً إلا بفضل "ديدرو" و "مونتيسكيو" و "روسو" و "فولتير" وغيرهم من فلاسفة ومفكري عصر الأنوار؛ كما لم تنتعق روسيا من الحكم القيصري إلا بأفكار "ماركس" و "إنجلز"، التي استلهمها "لينين"، فجعلها وقوداً أوقد بها الجذوة الأولى للثورة البولشفية؛ والنماذج عديدة في هذا السياق...

هكذا إذن تربع أصحاب الفكر والعلم على عرش العقول والقلوب على السواء، فبجل الناس كل الذين سعوا في تبديد ظلامية الجهل، وفي إضاءة مصابيح المعرفة والهدى والرشاد، وعلى لسان "شوقي" رددوا :

قَمَ لِلْمَعْلَمِ وَقَبَّهِ التُّبْجِيْلَا == كَادَ الْمَعْلَمُ أَنْ يَكُونَ رَسُولَا

أَرَأَيْتَ أَشْرَفَ أَوْ أَجَلَّ مِنْ الَّذِي == يَبْنِي وَيُنْشِئُ أُنْفُسًا وَعُقُولَا ؟

سَبْحَانَكَ اللَّهُ هُمْ خَيْرُ هَدْمٍ == لَمَّمْتَ بِالْقُرُونِ الْأُولَى

أَخْرَجْتَ هَذَا الْعَقْلَ مِنْ ظُلُمَاتِهِ == وَهَيَّأَهُ الثُّورَ الْمُبِينَ سَبِيلاً

إِنِّي لِأَعْرُكُمْ وَأَحَبُّ عَيْنِكُمْ == مِنْ بَيْنِ أَعْبَاءِ الرِّجَالِ ثَقِيلًا

هكذا بسط الناس عبر العصور بسطَ التبجيل والتوقير لكل امرئ انبرى لمهمة التربية والتعليم، صغيرهم وكبيرهم؛ عالمهم وجاهلهم؛ بسيطهم وحاكمهم. وقد روي أن الخليفة العباسي "هارون الرشيد" ما كان ليقضي أمرا في شؤون ولديه الأمين والمأمون دون استشارة مربيهما، كما كان "عبد الملك بن مروان" مع مستشاره الدائم، العالم "رجاء بن حيوى"، وكما كان "المعتضد بن عباد" مع الشاعر "ابن زيدون"، وابنه "المعتمد بن عباد" بعد ذلك مع الشاعر "ابن عمار"؛ وكذلك كان عمر بن عبد العزيز مع "ابن قلابة" البصري، وكان قبل أولئك جميعهم بكثير، "الإسكندر" مقدرًا لآراء ونصائح "أرسطو". وهلم جرا. هذا في ما مضى، إذ سرعان ما خفتت جذوة التبجيل هذه ومالت إلى الانطفاء، بعدما سعت سواعد الهدم بمعاولها بكل ما أوتيت من سلاح في تهشيم وتقزيم صورة ذاك المربي، عن طريق سَكِّ كل ما من شأنه النيل من سمعته ومن سيرته في أذهان الناس، من قصص وحكايا منسوجة بدقة أدبية عالية، ولعل ما جمعه "ابن الجوزي" من نوادر في كتابه "أخبار الحمقى والمغفلين" كان أول الغيث. بالإضافة إلى ما كانت تصوغه الألسنة والأهواء هنا وهناك من طرائف مضحكة، أصبح بها المربي أضحوكة الزمان التي سار بها الركبُان إلى كلِّ مكان، كأنما الحمق والغباء وكل النعوت والصفات المذمومة مبنوثة على شريط حمضه النووي، كالجينات "الأنانية" التي تحدث عنها "ريتشارد داوكينز"!! واني طبعا في ما ذكرتُ لم أقف موقفَ المحامي إلا إزاء الفئات التي تستحق كل الاحترام والتقدير؛ أولئك الذين ينصهرون كل يوم في أقاصي البلاد في صمت.. الشرفاء والنزهاء والوطنيون والمناضلون والصامدون أمام الجهل والجغرافية القاسية والواقع المرّ؛ الجنود الذين أذابهم الوطن في بوتقة النسيان.. ولو كان ثمة من أراد الإنصاف والاعتراف بهذه الشريحة ردد مع "تميم البرغوثي" قوله:

لَوْ أَنَّ الدَّهْرَ يَعْرِفُ حَقَّ قَوْمٍ == لَقَبَّلَ مِنْهُمْ الْيَدَ وَالْحَبِيْنََا

أما موقف الأنظمة الحاكمة من أولئك، فلم يعد كونه موقف خزي وعار، وموقف ناكر للجميل وللتضحيات؛ موقف السيد والعبد، سيراً على نصيحة "المتنبى" الشهيرة:

إِنْ تَشُدَّ تَرِ الْعَبْدَ لَا تَنْسَ الصَّامِعُ = إِنَّ الْعَبِيدَ لِأَنْجَاسٍ مَّا كِيدُ

وفي هذا السياق دأبت بعض الحكومات_ ولا أعم_ إلى تكميم أفواه شريحة هامة من نساء ورجال التعليم، الرابضين في مناطق نائية، لا تشجع الظروف المحيطة بها على أداء الرسالة التربوية على أكمل وجه؛ وكذا بإلجام كل مطالبهم الإنسانية الطبيعية المشروعة التي تدخل في باب "الحقوق" وليس في باب "الكماليات"، أي ما يركز على تحسين شروط الخدمة التربوية والإدارية، والارتقاء بمستوياتهم المعيشية، بما يضمن كرامةً اجتماعية تكون في حدها الأقصى على خط الكفاف والعفاف.. دون اللهث طبعاً خلف الرفاه الاجتماعي الذي يبقى مسعى وهمياً!!

إن الأداء المهني الجيد مرتبط أشد الارتباط بمدى بلوغ المدرس الراحة المادية والمعنوية والنفسية، وهي العناصر_ الثلاثة_ التي تتلبس الممارس وتعتز به ككوكب مترابط لا تنفصم روابطه ولا تتفكك عواهُ . فلا يمكن بأي حال من الأحوال الدخول في المعترك اليومي لأية مهنة بمعزل تام عن الهموم الثلاثة المذكورة (المادية والنفسية والمعنوية)؛ فهي في ظني حمولة لصيقة بالإنسان أينما حلَّ وارتحل، ولا يتغافل عن هذه الحقيقة البهية إلا بعض "المثاليين" من هيئة المراقبة والتأطير الذين يحاولون إقناع المدرس بممارسة مهامه مُتَحَلِّياً ومُلَقَّياً بكل حمولته أمام باب حجرته الدراسية.. مستأنفا عمله بذهن فارغ إلا من مضامين الدرس.. عجيب.. أليس يطلب منا أولئك المثاليون في الحقيقة إلا أن نفقد ذاكرتنا، أو أن نصاب بالألزهايمر قبل الشروع في العمل؟؟ أليست جمهورية "أفلاطون" الفاضلة الوسط المعتم الوحيد الذي يُكَدُّنا من مزاوله أي عمل دون حمولات كيفما كانت؟

فبئس وائدو حقوق الناس جهاراً وفي واضحة النهار، وبئس من سرقوا شبابهم وهمهم، وبئس من ألقوهم بعد عمر من التضحيات في مزابل التقاعد والهزم دون أدنى التفاتة وأدنى تقدير. بئس من اعتبروا

جنود الوطن أولئك أكلا شهيا أخذ من طبيبه، يُلقى بالباقي للتلف وللذباب.. كما قال "ابن زيدون" في "ولادة بنت المستكفي" بكل وقاحة:

أَكَلُ شَهِيٍّ أَصْبَا مِنْ أَطْيَبِهِ == بعضاً، وبعضُ صفحنا عنه لِقَارِ

وبوقاحة لا تقل عن وقاحة "ابن زيدون"، لسان حال أنظمتنا يكافئ كل ممارس آخر سويغات خدمته قبيل إحالته على التقاعد بقوله :

شَابٌ نَشِيطٌ أَخَذْنَا مِنْ عَزَائِمِهِ == بعضاً، وبعضُ صفحنا عنه لُله رَم

عن أولئك أرفع وأنفح، أما الذين حملوا على عاتقهم أحمال هذه المهنة فأفسدوا فيها، فلهم خالق ووطن وتاريخ، وكلُّ يحاسبُ على طريقته وشاكلته، ولست هنا أُؤدِّي دور محامي الشيطان.. فلو جاز الترافع عن فئة مغبونة ومسحوقة، فلا يجوز بكل موضوعية الدفاع عن فئة خانت شرف المهنة وخانت الوطن والتاريخ.. فما الذي جعل مهنة التعليم تتبرأ منهم إذن؟

** التخلق قبل التعليم ..

أُذِرَ عن "عبد الله بن المبارك" أنه قال لأحد تلامذته: "ما أحوجنا منك إلى قليل أدبٍ من كثيرٍ عِلْمٍ؛ والقولة تختصر في ظني كثير الكلام، وتضع الأصبع على مكنن الداء. فالأصل في المربي الخلق الكريم والأدب الرفيع والمعشر اللين، والا فماذا يتبقى من مفهوم التربية إذا أُفْرِغَتْ من هذه المعاني والأخلاق؟! قد يقول قائل إن السجايا المذكورة والصفات لا تجتمع سوى في الأنبياء والأولياء من دون الخلق. وأجيبه بأن نعم، صحيح هذا، وكذا ينبغي أن يجتمع في المربي ما تفرَّق في الناس، فهو المضطلع بتعليم الناشئة وتهذيب أخلاقها وتقويم سلوكها؛ كيف لا والرسول (ص) قال: "إنما بُعِثْتُ معلماً"، بل وزاد على هذا المعنى قوله _ في ما معناه _ "حتى الحوت في البحر يُسبِّحُ لمعلم الناس الخير..".؛ فأية رفعة وأي شرف ينالهما المربي أكبر من هذين؟ أما وقد تخلى هذا الأخير عن حلية الخلق الحميد، فالمؤسسة التربوية حينها ستعجز حتماً عن إنتاج القيم والأخلاق بتعبير الخبير "المهدي المنجرة". ولا يُعقل البتة محاكمة أخلاق الأطفال قبل محاكمة أخلاق المربي نفسه. فمن زرع الرياح _ كما يقول المثل _ حصد العاصفة؛ والله در الشاعر قائلاً ومتعجباً:

وفاقدُ تقوى يأمرُ النَّاسَ بالتَّقوى == طبيبٌ يداوي والطبيبُ عطيلٌ

وقول آخر:

لا تَقْدَ عن خُطْبٍ وتَأْتِي مِثْلَهُ == عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمٌ

وأبلغُ من هذا وذاك، قوله تعالى: **كَلِمَةً نَبَّأْنَا مُحَمَّدًا أَنَّ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** "

الخطاب السماوي الداعي كلَّ نفس بشرية إلى مراجعة التزاماتها الأخلاقية، وتعاقداتها الاجتماعية.

ينبغي التأكيد كذلك على أن سلوكات جل المتعلمين في الحقيقة ما هي إلا صور حية ونسخ طبق

الأصل من سلوكات مربيهم؛ ومادام المتعلم الصغير يَجْتَنِعُ إلى التقليد في بدايات مراحل نموه، قبل الانفراد

والاستقلال بشخصيته الخاصة، فهو إذن المرآة العاكسة لكل تصرف أو تعبير يلتقطه، سلبيًا كان أو

إيجابيا؛ فغرياله طبعاً يكون حينئذ بعيون واسعة يتسرب وينفذ عبرها كل شيء. ومن الحماسة والغباء أن تكون كالعجوز التي هسّمت مرآتها بعدما لمحت على وجهها تجاعيد غائرة، ظنا منها أن في المرآة عيباً ما!!

فلا يجوز بأي حال من الأحوال ترديد عبارات "فسد الزمان" و "العيب في الزمان"، وكل المسكوكات الكلامية التي تلقي اللائمة دوماً على الدهر والعصر، وفي الحقيقة "نحن" العيب الوحيد على جبين الزمان!!؛ وإذن كلما تخلى المرابي عن أخلاقه الحميدة، وإن كان أعلم العلماء، كلما فقد بريقه ولمعانه المجتمعي والتربوي، وغداً كالسيف غير المشحود، مظهرًا بلا مخور!!

يوزن المرابي في ميزان المردودية والفاعلية في ظني بمدى قدرته على التأثير الإيجابي في سلوكات طلابه وانفعالاتهم، وكذا قدرته على تغيير قناعاتهم وأساليب تصرفهم في مختلف الوضعيات الحياتية المختلفة؛ بالإضافة إلى قدرته على امتصاص ردود أفعالهم السلبية المنحرفة، مع محاولة الكشف عن أسبابها والعلل الكامنة خلفها، طبعاً في ما يسمح به اجتهاده الشخصي وإطلاعه المعرفي. بينما عملية تعبئة وشحن ذاكرة الطالب بعلوم الأولين والآخرين، ومطالبته بسردها واستعراضها ببغائيا عن ظهر قلب، فأمر يحسنه وقد يتفق أنه أي شخص، بل ويستطيع أي امرئ ملءً وأغراقاً ذاكرته قدر ما شاء دون الاستعانة بأحد. الشيء الذي تتيحه البرامج الالكترونية الحديثة التي تسمح بتخزين كم هائل من المعلومات ومخزون لا يستهان به من شتى أشكال المعرفة الإنسانية. مع الإشارة إلى إمكانيات الجهاز الإلكتروني المحدودة في التفاعل بشكل مباشر مع العنصر البشري، ناهيك عن تلقينه الآداب والأخلاق، فالمنظومة الأخلاقية بشكل عام سلوكات محسوسة قبل كونها نظريات فلسفية و توجيهات دينية ومعارف تستوطن الكرايس والأذهان.

بالتأكيد ليست هذه دعوة إلى الصفح وغض الطرف عن المعرفة، إنما قصدي أن المتعلم الصغير الذي لم يشتدّ عوده بعد، يحتاج أدباً كثيراً وعلماً قليلاً، على غرار التجربة التربوية اليابانية التي يقتصر

فيها المتعلم في سنواته السنَّ الأولى على تَعَلُّم بعض الآداب والمبادئ الأخلاقية الواجب اتباعها داخل البيت وخارجه، بعيدا عن الكم الهائل من المقررات المدرسية!!؛ وكلما تقدم العمر بالمتعلم استطاع التمييز بين الصالح والطالح، واستطاع غربلة الأحداث ووضعها في ميزانها الملائم. ساعتئذ فقط، يمكنه التماس العلم والمعرفة حيثما أراد بعدما يكون قد تَحَصَّن واكتسب مناعة أخلاقية. وكَم كان "سفيان الثوري" صادقا في قوله: "لاعب ابنك لسيع، وأدبلسيع، وعلمه لسيع، واتركه للتجارب"، وما أحسن قول "صالح عبد القدوس" فَطَّنَا لهكذا معانٍ :

إِنَّ الْغُصُونَ إِذَا قَوْمَهُهَا عَدَلَتْ == وليس يَلِينُ إِذَا قَوْمَهُ الْخَثَبُ

قد يَنْفَعُ الْأَدبُ الْأَحْثَاثَ فِي صِغَرٍ == وليس يَنْفَعُ فِي نِي السَّيِّئَةِ الْأَدبُ

في الأخير، ولكي لا يكون المربي فاكهة على موائد العامة والخاصة من الناس، ولكي لا يتحول إلى أمثلة فكاھية وصورة كاريكاتورية تتلاعب بها الألسن، يُفترض به بمزيد من الحذر إيلاء الاهتمام أكثر بما تضمه الوزرة من عقل وسلوك، فمن العيب أن نذرف دمعا من صَفْعِ أَكْثَانَا، ومن العيب كذلك أن يحتاج هذا المربي إلى مجتمع يربيه ويتلاعب به كيفما شاء. فلا أقل إذن من رسم صورة مستحسنة ومغايرة لما تصوره أذهان الناس، ليتبوأ من جديد مكانة تليق به، ولا يقع دملوما محسورا يَنْبُ مَلْكَاً ضَاعاً. ومن نافلة القول أن نعيد ونكرر قول "شوقي":

وَأَمَّا الْأُمَمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ == فَإِنَّ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

أعود إلى المدرسة المُستقبِلة، حيث استبشّر شيوخ المدرسين بمقدمنا المفاجئ كما تستبشّر الأرض العطشى بمقدم المطر؛ طبعاً لأننا هناك لنحمل عن كاهلهم بعض الأحمال المهنية المتعبة والمضنية، فمع تخطي حدود الكهولة والإقبال على دائرة الشيخوخة والهرم، تكون الأعباء أثقل فأنقل، فنقرأ على جباههم المحفورة قول "إبراهيم طوقان":

شَوْقِي يَقُولُ وَمَا تَرَى بِمُصَيَّبِي == قُمْ لِلْعُلَمَاءِ مَوْجِبَهُ النَّبْجِيَالَا

طَقُّ نَفْسِكَ هَلْ يَكُونُ مُبَجَّلًا == مَنْ كَانَ لِلنَّشْءِ الصَّغِيرِ خَدِيلًا؟

لَوْ جَرَّبَ التَّعْلِيمَ شَوْقِي سَاعَةً == قَلَّ ضَى الْحَيَاةِ تَهَّـ أَوْهٌ وَخُمُولًا

لَا تُعَجِّزُوا إِنْ صَحَّتْ يَوْمًا صَيِّحَةً == وَوَقَعْتُ مَا بَيْنَ الْفُصُولِ قَتِيلًا

يَا مَنْ رِيدُ الْإِتِّحَارَ وَجَهْتُ == إِنَّ الْمَعْلَمَ لَا يَعِيشُ طَوِيلًا

أخذنا نستأنس بالفصول الدراسية من جديد، وقد هالني الصمت والجمود والسكون الذي لَفَّ

الأشياء. بقي الحال على ما هو عليه طوال سنوات من الغياب؛ الجدران الإسمنتية ذاتها، والمصابيح

الغائبة والمقاعد المهترئة ذاتها واللوح الخشبي الأسود الخالد الذي لا يطاله الموت!! كأنما قُدِّرَ للصغار

المساكين ولوج فصول ذات مواصفات ثابتة لا تتغير مهما تغير العالم حولها!! وهنا يتولد لدي استغراب

كبير؛ كيف لتعليم أن يتحرك ويتطور وعقول وتفكير المسؤولين عنه كجلاميد صخر لا يزحزحها

الزمان، ولا تعرف معنى للتجديد؟!!

** التجديد قانون كوني .

كل شيء من المفترض فيه أن يُجَدِّد ويُعاد تشكيله كل آن،فالتجديد شأن من شؤون الكون بكل مكوناته، وكل شيء خاضع لحركة ما وإن بدا أمام العيون ساكنا مستقرا، وهذا ما أثبتته تأملات الفيلسوف "الملا" صَدْرًا الشيرازي" منذ القرن السادس عشر و"نيكولا مالبرانش" _صديق ديكارت_، كما أثبتته لاحقا علوم الفيزياء تجريبيا، خصوصا مع اكتشاف الذرة وتقدم الأبحاث في فيزياء الكمّ والجسيمات، دحضا لكل المقاربات العلمية والفلسفية القديمة المؤسسة على فكرة السكون وعلى "حقيقة" ثبات الأشياء بمجرد كونها لا تنتقل من مكان إلى آخر. المعنى الذي أكدته العلوم البيولوجية أيضا ومنذ القدم، مع تحديد آلية تجديد الخلايا على مستوى كافة أعضاء الكائنات الحية. وقس على هذا في كل مناحي الحياة. ومادام التجديد والتغيير قانونين من قوانين الحياة، فكيف نقنع أنفسنا إذن بتبني قوانين الجمود والسكون وسط سيرورة وحركية حياتية لا تتوقف؟ بل كيف نسمح لأنفسنا بالتشبث والالتصاق بقناعات وبأفكار وبتجارب أثبت العصر تخلفها وضعفها على مستوى الفاعلية؟! بالطبع لست أقصد وضع خمرة قديمة في جرار جديدة، لكني أقصد تطويع القديم وتحيينه وتطعيمه بما هو حديث وجديد.

لقد قضى الملحد "أنتوني فلو" أكثر من ثمانين سنة،محاولا إقناع الناس بفكرة عدم وجود إله خلق هذا الكون وضبط حركيته؛ لكن ومع هذا الوفاء الكامل طوال هذه المدة غير القصيرة، أصدر أواخر حياته كتابا بعنوان "هنالك إله" معترفا بقوله: "لا يمكن للإنسان أن يدافع عن قناعات إذا أثبت عكسها". وفي نفس السياق قال " أينشتاين" "مَوْفا الغباء بكونه": "اعتماد نفس الأسباب للحصول كل مرة على نتائج مختلفة!!"؛ وهذا "أبو حامد الغزالي" الذي تخلى عن التدريس في مدرسته النظامية، مغادرا في رحلة تصوف دامت عشر سنوات، باحثا عن الحقيقة، وتاركا خلفه جملة أفكاره واعتقاداته الأولى التي تبين له في ما بعد أنها خاطئة، وهو القائل في دار غربته حينها :

تَرَكَتْ هوى سُدَى وِليلى بِمَعْوِلٍ == وَعُدْتُ إِلَى تَصْحِيحِ أَوَّلِ مَنْزِلِ

فَنَأْتِ بِي الْأَشْوَاقُ مَهْلًا فَهَذِهِ == مَنَازِلُ مَنْ تَهْوَى رُؤْيِكَ فَاتَّوَلَّ
غَزَلْتُ لَهُمْ غَزْلًا دَقِيقًا فَلَمْ أُجِدْ == لِعِ زَلِّي نَسَاجًا فَكَسَّرْتُ مِغْزَلِي

وكذا كان شأن "الشافعي" الذي غيّر مجمل تعاليم مذهبه الأول (العراقي) بعد رحيله إلى مصر،
ليعلمنا أن الدين نفسه يقبل التجديد في ظل ما تشهده الحياة الإنسانية من متغيرات. والنماذج في سياقنا
هذا متعددة. فإذن، إن كان التجديد ديدن المخلوقات كلها، أفلا يكون بالحري ديدن من أوكلت بهم
مسؤوليتنا التربوية والتعليم؟؟ أوليس من الغباء إذن السعي خلف النتائج "المبهرة" و"الجودة" بالتشبت بوسائل
وببنيات متهاكة، تُعد من مُخَلَّفات العهد الكولونيالي؟! هنا فقط ينبغي الحذر من قول "أينشتاين": "شيئان لا
حدود لهما، الكون وغباوة الإنسان!".

الفضاء التربوي، أو المَصْنِ حيث تَزُول عمليتا التعليم والتعلّم، ركنٌ هام من أركان العملية

التربوية بشكل عام؛ والحديث عن الفضاء الدراسي يشمل حقيقةً الحديث عن جملة المرافق الملازمة
للحجرة الدراسية، من مكتبة ومطعم ومرافق صحية ومركز صحي... باعتبارها ذات أدوار خدماتية بالغة
الأهمية؛ وهنا سأقف قليلا مع المرفق الذي يشغل النصيب الأوفى من زمن المتعلم المدرسي..

إن تشييد الفصول الدراسية ليس بالأمر الاعتيادي والعشوائي كما يظن الكثيرون، وليس بالأمر
البعيد كذلك عن لغة الأرقام والبيانات المضبوطة؛ بل على العكس من ذلك، هو أقرب ما يكون خاضعا
لمعايير متداولة على الصعيد الدولي، من حيث المساحة والبناء والطلاء والتجهيز. ومادام الفصل المكان
الذي يقضي فيه المتعلم معظم وقته في التحصيل والتعلم كما ذكرنا، فلا مجال للعبث ولانتظار
المصادفات كمعايير يُؤسّس على أساسها ما ينبغي أن يؤدي أدوار تربوية وتعليمية بجودة عالية.
باختصار، لا يمكن الحديث عن حجرة دراسية إلا في مساحة تعادل أو تتجاوز خمسين مترا مربعا،
وتلاميذ لا يتجاوز عددهم خمسة وعشرين فردا؛ أي ما يعادل مساحة مِثْرِي مربع لكل متعلم. أما بخصوص
مواد البناء فينبغي التأكيد على ضرورة مراعاتها شَرْطِي المتانة وعزل الأصوات الخارجية والداخلية،

لتمكين المتعلم ما أمكن من وسط هادئ معزول. وبخصوص المقاعد، فمن غير اللائق توظيف مقاعد على مقاس ثابت لا يتغير، ومن مواد صلبة لا تراعي راحة القاعد ولا تراعي جلسته الطبيعية الصحية؛ هي كما هي حتى في الفصول المناخية المتغيرة. ومن تَمَّ فهي ليست مما يُراهن عليه لضمان حسن التركيز والاستيعاب. وفي جانب آخر، يحثنا الخبراء على الاهتمام بإضاءة الفصول وتهويتها اهتماما بالغا، فالإضاءة الضعيفة تسبب إجهاد العين، والتهوية الضعيفة تسبب ضيقا في التنفس وتراكما لغاز ثنائي أوكسيد الكربون، مما يسبب انتشار الأمراض التنفسية في صفوف المتعلمين. وأخيرا لا بد من الإشارة إلى الاهتمام بألوان الطلاء المعتمدة في الحجرات، حيث تشير نظرية اللون للإنجليزي "شارلز لميوكس" إلى الآثار النفسية التي يسببها اللون على الجسم البشري. فاللون الأحمر مثلا يزيدنا شهية إلى العدوانية، والأصفر يحفز إفراز الأدرينالين، وكلاهما لا يتناسبان مع البيئة المدرسية. أما اللون الأزرق فيساعد على تهدئة الدماغ، وهو خيار قريب إيجابيا للفصل؛ ومع ذلك فالأزرق مرتبط بالحزن وبالبرودة، كما يطيل الشعور بالوقت، وهو أمر غير محبذ لدى المتعلم. ومن المستحسن إذن كما تشير النظرية والدراسات المختلفة اعتماد الألوان الدافئة الفاتحة، فهي تجعل المتعلم أكثر يقظة، وتزيد من نشاط الدماغ، مما يساعدهم على زيادة مستوى الأداء خلال الدروس والاختبارات على السواء. وفي ما يتعلق بتكنولوجيا المعلومات، فهي طبعا جزء مهم من تنظيم الفصل. فالمدرسة معنية بتوفرها على حواسيب وربطها بالإنترنت، فالوسائط الرقمية الحديثة تساهم بشكل واضح في الإقبال على العلم والمعرفة، وكذا في التعزيز من أهمية المادة المُرسَّنة نفسها. وتشير الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع إلى أن دمج التكنولوجيا مع التعلم يُحسِّن من مستوى المتعلمين بصورة أفضل من الذين لا يستخدمونها. ولتحري الموضوعية أيضا، هناك دراسات نَحَتْ عكس هذا المنحى تماما، مؤكدة أن التضخم في استعمال الوسائط الرقمية والوسائل التكنولوجية يجعل الإنسان عبداً أبله أمامها، بل تجعله على درجة عليا من الكسل. على كل حال ليس هذا معرض الإثبات والنفي، ولكن غالبية الآراء حاليا انضمت للتيار الأول من الدراسات ونتائجها.

رَسَتْ بنا السفينة هناك، حيث أعادتنا الأقدار إلى صفوفنا ومقاعدنا الأولى وإلى ساحة

شغبنا الفطري الأول، وقد تَسَنَى لنا الاطلاع عن كُثْب على سير عمل المدرسين وسط فصولهم المكتظة، وفي شروط تتأى بشكل كبير عن شروط التعلم الصحية.. ومازلت أتذكر بهذا الصدد قولة أحد الغارقين وسط جحافل بشرية حين قال: "لطالما استطعت إسكاتهم، فقد تمكنت من تعليمهم!" كلام فيه من البلاغة والبيان ما يغني عن كل تبيانٍ وفهام، يشير إلى إحدى التحديات الكبرى التي كبحت ولازلت تكبح عجلة المنظومة التربوية من المستويات الأساسية إلى الجامعة رأساً؛ ويجعل كل الجهود الجانبية المبذولة تسقط للأسف في خندق الإخفاق.

إن مما أخلَّ ومازال يُخِلُّ بتوازن القطاع التعليمي ببلادنا إجمالاً، ويجعل المراهنة على الجودة رهانا خاسرا سلفاً؛ معضلة الاكتظاظ في الفصول الدراسية، التي باتت تفرز وبشكل واضح آثاراً جانبية سلبية، إن على مستويات التحصيل، وإن على مستوى اندماج الطفل داخل الجماعة؛ و محاسبة أي مدرس إذن يعاني مَوَّةَ هذا الوضع، على خلفية مسابرة إيقاعات المتعلم لكل فرد على حدة، وفق مقتضيات البيداغوجيا الفارقية، ضمن زمن محدود للحصة الدراسية؛ لهو تعسف مجاني، كون المَهْمَمَة أصلاً تخرج من دائرة العقل والقدرة كليهما. وإذا كان المقام لا يسمح بالمقارنات، فالتجربة الفنلندية الرائدة على مستوى العالم، حددت كحد أقصى عشرين متعلماً في كل فصل، مما يُمَكِّن المدرسَ عملياً و إلى حد بعيد من بلوغ أهدافه المسطرة، خصوصاً في المرحلتين الثانية والثالثة الابتدائيتين، وفي مواد الكتابة والقراءة والحساب. وإذا كان الأمر هكذا في بلاد كتلك، فما عساها تكون النتائج والمخرجات في حجرة إسمنتية تضم تحت سقفها أربعين متعلماً، على مساحة لا تتجاوز خمسة وثلاثين متراً مربعاً، أي بمعدل خمسة وسبعين سنتماً لكل متعلم؟! وللقارئ أن يقارن على كَيْفِه إذن...

** فصول كخلايا نحل !!

لا ينبغي للمقاهي الإعلامية التشدد واللعب بمفاهيم رنانة (الحكامة والجودة وتكافؤ الفرص..)، وتضليل الرأي العام، في ظل غياب ما يجعل هذه المفاهيم حيز التطبيق والإنزال. وراهنية القطاع التعليمي ككل يشهد تأخرات صارخة في شتى المجالات، والحال يستدعي تدخل جراحين اختصاصيين للإشراف بشكل سريع على ولادات قيسرية تحتاجها منظومتنا وهي على سرير العلاج. فالوزارة الوصية للأسف تهدم من حيث تظن أنها تبني بتكديس الأعداد الهائلة في حجرات ضيقة، مطالبة المدرس كالعادة بحسن تربية وتعليم هذا الجيش العَومِ، وفق متطلبات "الجودة"، وفي دقائق معدودة!! ولعل الشاعر كان صادقا حين قال:

أَلْقَاهُ فِي أَلِيمٍ مَكْتُوفًا وَقَالَ لَهُ = إِيَّاكَ إِلَيْكَ أَنْ تَبْتَلَّ بِالماءِ

تعتبر جماعة الفصل مجموعة من عناصر مستقلة يتعلمون ويحصلون معارفهم ومداركهم تبعا لإيقاعات مختلفة، وكلنا مُجمِعٌ على ذلك؛ فأمكننا القول بنوع من اليقين الإيقاع التعليمي يكاد يكون بصمة تميز كل عنصر من عناصر جماعة الفصل. وبالفعل أكد خبراء علم الأعصاب مؤخرا، تبعا للتشابكات العصبية الدماغية التي تميز كل إنسان على حدة _كبصمة الإبهام_؛ أن مستويات الفهم والإدراك والتواصل والتفاعل مع المحيط، هي في الحقيقة انفعالات إنسانية تميز كل فرد، إذ لا توجد تشابكات عصبية متشابهة بين البشر، حتى وإن تعلق الأمر بتوأمين حقيقيين... فلو افترضنا الآن أن المدرس معني بتدريس أربعين متعلما، ففي الحقيقة نكون قد حكمنا عليه بضبط أربعين إيقاعا تعليميا؛ والسؤال الذي يفرض نفسه علينا الآن، هل حقا بمقدور مدرس كيفما كان إيلاء اهتمامه الكامل لكل هذه الإيقاعات المختلفة_ وهذا ما يفرضه منطق الجودة_ في زمن مدرسي لا يتجاوز في حده الأقصى خمسا وأربعين دقيقة؟! هنا، يكون المدرس بين كفتي ميزان، فإن هو أنصف فئة ظلم أخرى، مهما تحرى العدل

والإنصاف. لتكون جهود المدرس، مهما بلغت، دائما تحت عتبة المتوسط، ومن هنا يتحول هذا الأخير إلى شماعة تُعلّق عليه منظومتنا التعليمية فشلها وكل إخفاقاتها تحت تبريرات عدة.

تبقى من التأثيرات السلبية لمسألة الاكتظاظ عبءُ وبةُ اندماج الطفل إيجابيا ضمن جماعة الفصل_ سوى في بعض الحالات الاستثنائية_، وعدم تمكنه من إبراز ذاته وكيانه المستقل بين جموع ذوات أقرانه، تماما كبعض الحشائش والنباتات البرية التي تظل عائشةً في الظل تحت قريباتها السامقة والعملاقة ذات الزعامة والريادة، وهذا ما تؤكدُه جل شهادات الممارسين لمهام التدريس بشكل مباشر.

عند الوقوف على إشكالية الاكتظاظ دون تمحلات ومراوغات المنظرين التربويين الساعين دائما إلى تسوية الظاهرة وإسنادها بمجموعة من التبريرات الواهية، مراوحين وملتقنين حول مكنم الداء، غاضين الطرف عن الحل الحقيقي لهذه الأزمة، كما كان الشأن بتبريراتهم الأفلاطونية لإرساء ظاهرة" الأقسام المشتركة"!!؛ فإننا نتلافى حتما كل شرط من شروط الجودة المطلوبة والحكمة التربوية المنشودة، كما لا يمكن في رهن ما بلغته الظاهرة الحديث عن سيرورة تربوية طبيعية، بل وأخطر من هذا وذاك، قد تساهم بشكل غير مباشر في الهدر المدرسي، ذلك من حيثية عدم تمكن بعض العناصر من مواصلة تعليمهم في ظل جماعة تمارس الكبت والإقصاء والعنف ضد كل من عجز عن إثبات جدارته للانتماء إلى مجتمع الفصل، خصوصا إذا تكرر الأمر مع نفس الفئات سنة بعد أخرى. فعلى عقلاء هذا البلد تحديدا عدم تحميل حجات مدارسنا الضيقة ما لا تطيقه من جحافل بشرية تحت يافطة "تعميم التعليم"، التي غدت خلايا نحل يستحيل معها تهبيء جو ملائم للتحصيل وللتركيز ولبناء المعرفة. أما الحلول فملقية على الطرقات ويعرفها القاصي والداني، إلا إذا كان عقلاؤنا يضمرون لهذا الوطن شيئا آخر، ويفهمون الوطنية على نحو نجهله؛ أو أن تكديس الأطفال ومراكمة بعضهم على بعض حل سحري ناجع، ونحن المدرسين لسنا أهلا لاستكناه السر الدفين خلفه؟؟ لكننا على الأقل نعرف أن المفكر "عزت بيغوفيتش" قال: "جفوا المستتعات عوض قتل البعوض!!"، ونعرف كذلك أن "الشافعي" قديما قال لأمثالنا:

نُفِي النجاةَ ولم نسلُكَ طريقَها == إِنَّ السفينةَ لا تَجري على اليَسِ

** دروس كاريكاتورية !!

سنترك الأمور هاهنا لنرحل إلى ما أظنه أسوأ حالا مما قيل، طبعاً، أتحدث عن الدروس التي كنا نقدمها أمام المتعلمين المساكين، أولئك الظانين أننا كنا نحسن صنعا، وأنهم أمام مدرسين حقيقيين. وكلنا يعلم على الأرجح كيف يكون كرسي خشبي يصنعه خباز، وكيف يكون خبز يطهوه رصاص.. في أفضل الحالات سنحصل على صورتين كاريكاتوريتين للكرسي وللخبز، خلاف إن انبرى النجار لصنع الكرسي والخباز لإعداد الخبز. استدعيت هذا المثال الساخر ربما، لنعترف جميعا بفداحة ما كنا نرتكبه ونقترفه أمام متعلمين بسطاء لم يملكو بعد لياقة التمييز بين الصواب والخطأ؛ فكان المتدربون المحسوبون على الفئة العلمية يتورطون أمام قواعد اللغة العربية المنسية طيلة المرحلة الثانوية. أما المعدودون على الفئة الأدبية فكانوا أوفر حظا مع دروس اللغة، لكن سقطاتهم كانت بادية أثناء الاشتغال على دروس الرياضيات والعلوم. ليظل الأستاذ "الطبَّق" كبش فداء بين الفئتين، يصحح حيناً أخطاءنا الفظيعة، ويستدرك حيناً آخر مع تلامذته ما نقشناه من "خطايا" معرفية ومعلومات فاسدة على صفحات عقولهم. اختصارا كنا في "زمن الأخطاء" بتعبير الروائي "محمد شكري" ..

لو كان النقد الذاتي مرحلة متقدمة من مروءة الإنسان ووعيه ورقيه، لكُنَّا تساءلنا: من المسؤول عن العشوائية والارتجال اللذين تسببا في هدر الزمن المدرسي وتغييب المعلومة الصحيحة؟؟ لا أدري في الحقيقة لماذا تتعمدُ أنظمتنا التعليمية أن ينهي المتعلمون مرحلة الثانوية عوجاً، واقفين على قدم واحدة؟ على قدم العلوم أو على قدم الآداب، كأنما يُحرَّم عليهم الوقوف على قدمين كما تقتضي الطبيعة!! في حين كان من الأليق والمنطقي إيلاء الأهمية القصوى لجميع المواد المُدرَّسة علمية كانت أو أدبية مهما

كان اختيار الطالب وميوله. ولست أرى عيباً في طالب تسلّم شهادته الثانوية وقد غرف مما يكفيه من معين العلم والأدب كليهما، قادراً على الجمع بين التوجهين، مستفيداً من المعرفتين في حياته العادية. فالمعرفة الإنسانية في آخر المطاف مُكتسبٌ إنساني مشترك وملكية جماعية.

كنا للأسف ضحايا نظام تعليمي لم يستشرف المستقبل بكل تحدياته وممكناته، نظام قام على مبدأ (ابتلع ثم تقيأ) على نهج البافلوفيين (مثير/استجابة). ببساطة، نظام يدعوك لشحن بطاريات عقلك طيلة ثلاث سنوات، ليستعيد منك المشحون والمدرّس بـمُجدِّ الحصول على الشهادة الثانوية على مذهب "بضاعتنا رتت إلينا"، لتضيع حصيلة السنوات وتفسد بين أيدينا كما تفسد المعلبات.. فهل كان واضعوا النظام هذا غافلين كون حامل الشهادة الثانوية يمكنه ذات يوم أن يضطلع بمهام التدريس؟ إنها بحق مثالب ومزالق التفكير المنعزل والمحدود، الذي لا يؤسّس الأرضية التربوية في شموليتها وفق رؤية تتغيا تجاوز تحديات الحاضر واستشرف المستقبل بكل مستجداته وتحولاته.

لبنّا على حالنا المخجل ذاك طيلة فترة التداريب، مع فرق طبعا في درجات انتهاك "حقوق" المواد المدرّسة، فبعضنا أسعفته في الحقيقة الأقدار بذاكرة قوية يسرّت له لملمة شتات الماضي واستحضار دروس المرحلة الابتدائية. إلا أن الإفلاس المعرفي و البيداغوجي كان الطابع العام الذي طبع تلك الفترة من التأهيل المهني.

لم تكن معالم ورهاصات المدرس "المنشود" قد بدت علينا بعد، ولم نكن قادرين في الحقيقة على تحمل مسؤولية تعليم وتربية الأجيال المقبلة من الشعب، أولاً لحدائثة سنّنا وغياب مفهوم "المسؤولية" الذي أغلبنّا، ثانياً لأن سلاحنا المعرفي والبيداغوجي لم يكن لفي بالغرض أمام معركة طويلة وشرسة مع اللغة والحساب، إن مع ضبط القواعد المتعارف عليها، وإن مع ضبط الثابت والمتحول فيها؛ ثالثاً للبرنامج التكويني الباهت المتلقّى على عجل، غير الآبه بعالم القرية المنسي والمنبوذ..وهنا نكون قد سقطنا في

حفرة أعمق من سابقتها...وعلى ذكر "القرية" نتساءل: لماذا يُحدث البعض منا تصنيفات تمييزية تفاضلية في النظام التعليمي الواحد، على غرار التمييزات في الجنس البشري الواحد والمنطقة الجغرافية الواحدة؟؟

** بين القرى والحوضر..

لَكُمْ صُنْفُ الجنس البشري والنظام التعليمي ببلادنا إلى قروي وحضري، وعندما نتحدث هنا عن الحضري، مواطن الدرجة الأولى، ذاك القاطن بالمدينة؛ في حين يأتي القروي متدليا من الدرجة الثانية في سلم الهوية والمواطنة، يقتات على فتات ما يفيض على الأول من حاجاته التنموية والاقتصادية والسياسية والثقافية. وقد يكون هذا الكلام تعسفا على النصوص القانونية والمواثيق الدولية الحقوقية، بل حتى على النصوص الدينية نفسها، لكن كذلك، نعلم في صميم ضمائرنا أننا بشر نتعرض للتصنيف في كل دقيقة وثانية، ولو كان للواقع لسان ناطق لبأح بكل شيء. ولنعد إلى الإشكالية في مهدها الأول، طارحين السؤال: هل وجود القرى والحوضر حتمية كونية وميزان طبيعي، أم الأمر لا يعدو كونه صنعة بشرية بالأساس؟! واختصارا نقول: إن كانت المدنية بال عمران الإسمنتي والزجاجي، وبالطرق المعبدة، وبشبكات الماء والكهرباء والصرف الصحي، وكذا بمؤسسات معنوية تؤدي خدمات ووظائف للمواطنين؛ وإن كان كل موضع جغرافي يغيب فيه ما قيل يسمى "قرية"، فالأمر حينئذ صنعة بشرية لا محالة، كون الجماعات البشرية الأولى لم تجد أمامها إلا قرى طبيعية تمتد من شمال الكوكب إلى جنوبه، ومن شرقه إلى غربه؛ قوامها تضاريس طبيعية وأشكال جغرافية طبعها التنوع. فالمجتمعات البشرية خلال سيرورة تطورها أخرجت نفسها من عمران الكهوف إلى عمران الأبراج وناطحات السحاب، فتكتلت في أماكن تسمح لها بنوع من الاستقرار الغذائي والمناخي البيئي والثقافي فيما بعد. وهذه السيرورة تبقى ثابتة ومنطبقة على كل بلدان المعمور، لكن الفرق الشاسع بين التجمعات هذه داخل حدود البلاد الواحدة، من حيث المعيش اليومي

وحظوظ كل منها من ضرورات الحياة و الرفاه الاجتماعي؛ بادٍ وواضح وضوح الشمس، خصوصا حين يتعلق الأمر بالفروقات الاجتماعية والاقتصادية بين "القرى" و"الحواضر" ببلدان العالم الثالث. وإذا كان مفهوم القرية في الدول المتقدمة يعني المكان الكائن بضواحي المدينة المخصص للراحة وللاستجمام، بعيدا عن الضوضاء والضجيج والرتابة اليومية، حيث الحدائق والحقول والطرق المعبدة وكل وسائل الراحة، وحيث تُوفَّر كل الخدمات المتعارف عليها. باختصار شديد، "القرية" لدى هؤلاء "مدينة خضراء بلا ضجيج"؛ وعليه لا ينبغي بأي حال من الأحوال إطلاق مصطلح "قرية" على ما يحيط بمدننا، وإنما الحقيقة أن ننعته بـ"الأرض المتوحشة القاحلة"، ذات الطبيعة الجغرافية العذراء التي لم تطلها يد إنسان منذ نشأة الكوكب؛ ^{»»»} عرِّها الافتراضي ^{»»»} عرَّ أحدث طبقة صخرية؛ إذ لم تتأثر سوى ببعض العوامل المناخية والجيولوجية على مستوى غشاء الطبقة الأرضية العليا. أما المسالك التي تخترقها، فمصنوعة بحوافر الدواب وسواعد البسطاء. عمرانها مُكْتَفٍ ببيوت طينية مسقوفة بأغصان شجرية في أغلب الحالات. أما باب الخدمات فهو مقفل إلى أجل غير مسمى...

تأسيسا على ما سبق، أمكننا القول بنوع من اليقين، إن الكيان القروي عموما لم تخلقه سوى الذهنية البشرية "الأثانية" التي جعلت البعض الميسور يتنعم بما توفره المدينة من خدمات ورفاه، على حساب البعض المعدوم الرازح تحت لفق الشمس الحارقة. ولم تنزل سياسات الدولة للأسف تكرس وتعمق من هذا إقصاء وتهميش شرائح واسعة من النسيج البشري الوطني، غافلة_أي الدولة_ أن المنسيين هنالك من رجال ونساء، هم في الحقيقة من ملأوا بطوننا وغزلوا فُرْشَنَا، غافلة كذلك أنهم من أنجبوا المقاومين الأحرار، من جعلتنا بنادقهم نعم فيما نحن فيه من استقلال وأمن وأمان؛ غافلة كذلك أن بيوتهم على بساطتها وبدائيتها تُعتبر آخر معازل وحصون القيم النبيلة والأخلاق الحميدة. هذا، وفي آخر المطاف، نتواطأ مع الشأن المظهري للإنسان المتأنق في بذلة وربطة عنق وحذاء لامع، ولا نكاد _أغلب الأحيان_ نعطف ولو بنظرة على مُتَجَبِّبٍ بجلباب رخيص، باعتباره بدويا غير متحضر، تشمئز أنفسنا من سَمْتِهِ،

كما يشمئز خصوم التطوريين من إنسان "النياندرتال" القديم و"الهوموسابين" و"الأوسترالوبيتكس"...آه كم

أطعمتنا ببادر البدوي صاحب العمامة والجلباب المرقع..ويكفيني في أمثالك قول القائل:

أَيُّهَا النَّاسُ أَتُمُّ الْأَمْرَاءَ == بِكُمْ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ سِوَاءُ

يَا نُوْجُوْمًا تَمْشِي عَلَى قَدَمِيهَا == لَأُمَّمَا أَظْلَمَ أَضَاؤُهَا

أما المتنبي فقد توسَّط المعسكرين وأنصف الجميع قائلًا:

النَّاسُ لِلنَّاسِ فِي بَوِّ وَحَاضِرَةٍ == بَعْضٌ لِبَعْضٍ وَإِنْ لَمْ يَشْعُرُوا خُمٌ

إن الفهم الطفولي الذي كرسته مجتمعاتنا على مستوى الوعي الجمعي جعلنا نعتقد جازمين أن

التحضر منحصر في تغطية البدن بملابس أنيقة موقعة بعلامات عالمية معروفة، وكذا في حمل آخر

صيحات الهواتف الذكية؛ والفهم نفسه ذاك ما زجَّ بكل أسماٍ بالية ونعال قديمة وشعر أشعث في خانة

البربري والمتوحش!!؛ وطبعا غاب عن الفهم العام أن التحضر شيء معنوي يتأسس على مستوى الوعي

الإنساني والفكري المُتَرَجِّمِي كسلوكات وكمعاملات، إن لا نميز المتحضر عن غيره سوى بما يصدر عنه

من انفعالات واهتمامات وقناعات، بغض النظر عن مظهره الخارجي الذي يفشل في الغالب عن الوشاية

بما في الجوهر والباطن. أما ما نُكْرُ أَنفَا مِنْ مَظَاهِرِ مَادِيَةِ (الهاتف، اللباس، السيارة..) إنما يندرج حتما في

خانة "التمدن" الذي عرفته الإنسانية خلال مسيرة تطورها التي أفرزت الحاجة إلى وسائل تقنية تسهل

الحياة البشرية. فلا ينبغي مهما كان الخلط غير المتجانس بين "التحضر" كثقافة ووعي وسلوك، و بين

"التمدن" كشكل من أشكال القدرة على توظيف وسائل وتقنيات حديثة. ولكم أعجبتني عبارة للدكتورة نوال

السعداوي "حين كتبت تقول: " مهما تقدم الإنسان وقطع أشواطاً في التقنية والتمدن، فلازل يعيش انتكاسات

كبيرة في وعيه وفكره وسلوكه!". فكيف تسمح أنظمتنا بشطر التعليم، هذا الحق المكفول لكل أبناء وبنات

الوطن بنفس الجرعات وبنفس الحظوظ _ كما يثبت الكتاب الأبيض والميثاق _ إلى شطرين: قروي

وحضري.. أليس هذا تمييزاً عنصرياً بأشكال وألوان جديدة _ دون فتح ملف "العمومي" والخصوصي" _ ؟!

أين الحظوظ هذه التي تحدث عنها الكتاب الأبيض و يوتوبيا "تكافؤ الفرص" التي تَطَّلَع إليها الميثاق أيضا؟!

إن تحقيق ورش الجهورية الموسعة في قطاع التعليم من المفترض أن لا يمنع المتعلم على الأقل من الاطلاع على ما تستبطنه جهته الجغرافية في شتى مجالات الحياة، دون تصفية وغرلة، كما لا يمنعه ذلك من الانفتاح على مختلف المستجدات، إن في أفقها الوطني والإقليمي، أو في أفقها الدولي والعالمي. فلنتصور الآن حالة تلميذين ضمن حدود منطقة جغرافية معينة، أولهما يُرْسُ كل ما شهده العالم من تطور وتحديث، وثانيهما يقتصر على بعض أنقاض وفتات جهاز معرفي لا يتجاوز حدود البادية، وأمور بسيطة متداولة بشكل عادٍ وطبيعي في المجال الحضري. اختصاراً، أقصد الجهاز المفاهيمي والمعرفي المكتسبين تداولياً دون الحاجة الماسّة لمقاعد ولسبورة ولمدرس.. وكل ما في الأمر أن الأول محظوظ اجتماعياً لأن "المدينة" كانت مسقط رأسه، أما الثاني فكانت جريسته الكبرى والوحيدة أنه ولد بين قطعان الأغنام وبين بيوت من تراب!! في حين كان من المنطق السليم ربما أن نُلْعَمَ الجاهل ما لا يعلم، لا أن نعلم المرء ما يعلم؛ بمعنى أن نعلم التلميذين ما يجهلانه، لا أن نعيد أمامهم إنتاج ما أنتجته محيطاتهم ومجتمعاتهم المعزولة، ليأخذ كلاهما نظرة شمولية عن ما خفي عنه على بعد أميال يسيرة من مسقط رأسه. وهل نستطيع إنكار حقيقة أن ثمة في "المدينة" من يجهل شكل المحراث الخشبي، وثمة في القرية من يجهل اختراعاً اسمه الحاسوب؟!

فإذن، إذا كان أبناء الشعب يوزنون بميزان واحد، وكانوا على نفس الخط من المواطنة دون تمييز أو تصنيف أو ترتيب حسب المواقع الجغرافية، فلا ينبغي بأي حال رسم وتصميم تعليمين على مقاسين متباينين، وفق خريطتين مصنفتين لشعب واحد ولوطن واحد، كما تُصنّف مقاعد الطائرات والقطارات حسب "أهمية" الزبون!!

إن مبدأى المساواة وتكافؤ الفرص يحتاج إرساؤهما على أرض الواقع وبين جدران الفصول الدراسية، وإخراجهما من عوالم اليوتوبيا وأحلام المنظرين والحكومات، إلى جراًة سياسية كبيرة وإلى قرار وطني قادر على إعداد برنامج تربوي واجتماعي طويل النفس، يستطيع ترجمة الشعارات والمواثيق والمذكرات الوزارية المألأى بالنوايا الحسنة وكلام الشعراء إلى برامج حقيقية ملموسة تعود بالفائدة على الجميع.

**** على أعتاب إنهاء التكوين ..**

أتينا على إنهاء مرحلة التكوين، وطبعاً سنختتم الموسمين باختبار عملي، والمقصود به إعداد درسين أحدهما باللغة العربية والآخر بالفرنسية، ودرس مستقل في مواد التفتح (النشاط العلمي أو الفني..)، والاختبار ببساطة يقوم على إعداد الدرس المقترح وتقديمه أمام التلاميذ كعينات "تجريب" من جهة، وأمام لجنة تضم مدرسين وتربويين ومفتشين من جهة أخرى. بشكل عام، المدرس مطالب بالإعدادين المادي والذهني الجيدين لكافة الدروس، ومحاولة استحضار وتطبيق كل ما تلقاه في فترة موسمين تكوينيين كاملين.

طبعاً مرت الاختبارات بشكل عادٍ، وقدم كل متدرب ما بحوزته، أما التوفيق فكان معيارياً يخضع لضوابط ومعايير محددة سلفاً؛ وكالعادة لم ينشغل المراقبون سوى بعيوب المتدربين وبنواقص أعمالهم، وهذا ديدن أي مسؤول يحمل خاتماً وحقيقية في دول العالم الثالث. والنتيجة، الكُلُّ وَفَّقَ في اجتياز الاختبارات بنجاح منقطع النظير.

لنكتشف جميعاً متأخرين قواعد اللعبة.. كل شيء كان "شكلياً"، وكأننا كنا على ركح مسرح، وليس في فصول دراسية حقيقة لا أقل ولا أكثر..

سنتان تبخرتا من الأخذ والرد، كانتا وهماً عشناه بكل ما أوتينا من سداجة وضعف دراية بما يسمى "السياسة العامة للدولة". فما كان جدوى اختبارات محسومة النتائج، وسنتين من الثثرة الشكلية،

مدخلاتها كمخرجاتها؟! أما الجواب فُمدَّتْ في رأس السياسة مرة أخرى، وهذه المرة، السياسة الخارجية التي تفرض إرسال تقارير "لامعة" و"براقة" للمنظمات الدولية، وتحسيسهم بالمجهودات الجبارة المبذولة في الشأن التعليمي والتربوي ببلادنا، لنحظى في النهاية بالإشادة الدولية وبالتهانئ والتصفيقات الكاذبة. في حين، لا يتطلب الأمر عمليا سوى شهرين كحد أقصى من الممارسة الفعلية للمهام والاحتكاك اليومي بذوي الخبرة المهنية في الفصول الدراسية، إلى أن تُضبط أصول العمل بأهم حيثياته؛ لتأتي مرحلة التعيين ومرحلة تقلد المسؤولية، كميدان حقيقي لصناعة المدرس بالمواصفات المطلوبة والمنشودة. ولو أردنا تكثيف كل ما قيل خلال سنتي التكوين واختصار القصة كلها، قلنا بلا مبالغة، إننا ولجنا المركز بوزرة بيضاء وبدماغ حوى معلومات يسيرة، وغادرناه بوزرة بيضاء وبدماغ مغسول!!

** على مرفأ التعيين (2002 إلى ما شاء الله)

لا بد، وقد بلغ قلبي هذه المرحلة من خواطري هذه، أن أعترف حقيقة بكونها أسوء مرحلة إطلاقاً يمكن للمرء أن يُقدم عليها ويعيش تفاصيلها. فإذا كان "نيتشه" على الأرجح صادقاً حين قال: "ليس له عقل ذاك الذي يبحث عن عقل"، فبالحري نكون صادقين لو تم تحوير كلام "نيتشه" هذا وقلنا: ليس له عقل ذاك الذي يبيع حريته باحثاً عن القيود؛ لذلك سأفتح هذه المرحلة شعراً، إيماناً مني بالقدرة الإبداعية والخطابية السحرية للشعر دون الأشكال الأدبية الأخرى المعروفة، وكذا الكتلة الانفعالية التي يستطيع الشعر ضحاًها في نفس ووجدان المتلقي. ولا أقول هذا استجداءً ولا استئثاراً لعطف الآخر، ولكن ما في النفس من أسي ومن تشطُّ روعي وتراكم للمزاج الملتخولي، أوقد في قلبي شرارات قصيدة تبت لواعج ما أخفيه في صندوق الأسود، وكذا لواعج أمثالي ولخواني في المحنة ذاتها... وكأننا من جديد نخرج محنة الإمام "أحمد بن حنبل" من قبرها لتطفئ نيران فتنة "خلق القرآن"، لكن سنتقصُّ الدور عنه، وسنحمل المحنة على أكتافنا إلى ما شاء الله، ونترك الإمام "أحمد" يستريح!!

أذقت صنوف الضرُّ لم يرَ حالياً == سوى الله، والأيام تعرف ما بيا
كأنني أعيذُ أمسَ أقرأ سؤهُ == ف يحضرنِي يعقوبُ ملثِّي باكبيا
فهبلي رَعَجْل - يا زمانُ عزيمةً == وهبلي شعاراً أتخذهُ شعارياً
لقد ضاعَ عمري في المنافي كلُّهُ == فهل كنتُ حقاً أستحقُّ ضياعياً ؟
وعدتُ غريباً في الحياة كأنما == وُلدتُ بلا أمٍّ تداوي جراحياً
على رَهْدِ الدنيا تعمقُ غُتِي == ومازالت الدنيا تقصُّ جناحياً
فيا لبيتي ما بعثت نفسي بدرهمٍ == بعثت الدنيا حتى خسرتُ حظي يا
فسطاً ل ملثِّي يستكينُ لنفسه == تزيه من الأوهام زيفاً ملثياً
تعظّم هجلي حين صدقتُ إنفكهُ == فعُد بي إلى الماضي إليهي اثياً

فلو كان لي نصف من العقلِ ناصحٍ == ونصف هَلْدِي ما تَرَكْتُ بِإِلَادِيَا
ولو سَمِعْتُ أُذُنِي نَصِيحَةً وَلَا يَدِي == وَحِكْمَةً خِلَافِي مَكَثْتُ بِدَارِيَا
لَعِشْتُ حَلِيَّتِي بَيْنَهُمْ دُونَ غَيْبَةٍ == وَمَا صِرْتُ مَنفِيًّا أَجُوبُ الْمَنَافِيَا
ولكنَّ أَسْمَاعِي عَنِ الْحَقِّ أَعْرَضْتُ == وَهَلْ نَفَعُ الْمَوْتَى صَوَاخُكَ عَلَيَا ؟
عَرَفْتُ مَدَى السَّاعَاتِ أَسْوَأَ عُرَّةٍ == فَمَا كُنْتُ قَلْدِي صَاحِبًا بِجَوَارِيَا
لَعَلِّي أَرَى فِيهِ الْمُعِينَ عَلَى التَّوَيِّ == وَفِيهِ أَرَى أَهْلِي وَبَعْضَ دَلْدِيَا
وَصُحْبَةَ أَهْلِ كَالْمِيَاهِ لِتَرْبِيَةٍ == وَأَرْضُ بِلَاءِ مَاءٍ تَصِيرُ صَحَارِيَا
غَرِيبٌ أَنَا فِي الْأَرْضِ غُرْبَةً تَلْدِيهِ == ظَنَنْتُ وَرَائِي، لَا بَلْ ضَلَلْتُ أَمَامِيَا
فِيَا رَبُّ هَلْ لِي فِي الْحَيَاةِ مَسْرَةٌ == أَصَادِفُهُذُ وَرَأْيُ يَدِ ظَلَامِيَا ؟
تَجَاوَزْتُهُ دَرَجَاتٍ حِينَ عَرَفْتُنِي == أَقِيمْ عَلَيَّ قَدْرَ السُّؤَالِ جَوَابِيَا
وَبَدْتُ لَرَى نَفْسِي سُلَيْمَانَ عَصْرِهِ == وَالْمَكُ مِنْ دُنْيَايَ قَصُورًا خَلِيَا
وَمِنْ سَبَابِ ذَا عَرْشِ بَلْقَيْسٍ مُقْبَلٍ == لَهَا كُنْتُ ذَاتَ الْآنِ خَصْمٌ وَقَاضِيَا
وَإِنِّي لَمَّا سَدَّتْ فَتْرَتُ مِنَ الْكُرَى == لَمَمْتُ بِأَنِّي مَا بَرِحْتُ مَكَلِيَا
وَهَذَا بَرِيقُ الْحُلْمِ لُرُكْبِي سَدِي == عَلَى فَرَسٍ لَمَّا طَوَدْتُ حِمَارِيَا!
وَظَنَّ دُنِي فَوْقَ الْعُرُوشِ كَأَنِّي == إِذَا مِتُّ يَوْمًا لَنْ أَعُدَّ عِظَامِيَا
كَذَا عَطَشُ الْمَنْفَى لَنْ فَاضَ مَأْوُهُ == فَلَا لَمَمُ مَائِي، لَا الْهَوَاءُ هَوَائِيَا
تَعَجَّلْتُ مَوْتِي قَبْلَ مَوْتِي وَلَيْسَ لِي == سِوَى قَوْلِ: رَبِّي لَا تَزِنْنِي النَّوَاهِيَا
وَمَا نَفَعُهُ أَلَا الْفَهَامُ تَحْضُرُ بَعْمَا == بِأَقْلَامِي السُّكْرَى كَتَبْتُ فَنَادَيْيَا ؟
كَسَبْتُ زُجَاجَاتِي وَلَمْتُ زُجَاجَهُ أَا == فَغَنِي يَا تُرَى يَكْبِي الدَّمُوعَ مَكَانِيَا ؟

لئن كانت بعض المنافى تصنع وتقوي العزائم والنفوس وتبني الرجال، فبعضها على النقيض من ذلك، تثبط الهمم وتكسر النفوس وتدفن الرجال!! وقد يتساءل متسائل، ماهذه السوداوية كلها في الوصف والتعبير؟؟ وما هذا السرد الملفوف بالتشاؤم وبعدم الرضا؟؟ وما طبيعة هذا المنفى الذي يستحق كل ما قيل عنه من تَثْرِيْبٍ ومن شتى الأوصاف والنعوت السلبية؟؟. سأنتساءل بدوري مع المتسائل، لكنني سأطرح التساؤل بشكل أوسع وأشمل، وأقول: كيف يتبنى الفرد ويبنى معجما خاصا يملأ الشعور واللاشعور؟؟ متى يكون المعجم المفاهيمي لدينا إيجابيا ومتى يكون سلبيا؟؟

الاشعور يتحدث !!

إن بعض الإشارات إلى الجواب قد تكون في الحقيقة مستبطنة في ثنايا التساؤلين الأخيرين نفسيهما، فحينما يتعلق الحديث بالإيجابية والسلبية، سنكون ملزمين إذن بالعودة إلى الوراء والبحث عن مسبب الأسباب وعن أصل الأشياء.

إن مختلف ما يتلقاه المرء ويتجرعه من خطابات مسموعة، على شكل نعوت وأوصاف وتقديرات، على الأرجح، تلعب الدور الأساس في تربيته وإنشائه_ دون وعي أحيانا_ لغة خاصة للتواصل، لغة تجمع وتداول معجما ورصيذا تعبيريا نوعيا، كان في فترة ما المعجم الوحيد المتردد على أسماعه، والطافح على البيئة المحيطة به؛ وهي الآلية التي يكاد يجمع عليها الباحثون في علم النفس وعلم الاجتماع، فهؤلاء يعتبرون جملة السلوكات والانفعالات البشرية مهما تنوعت واختلقت، إنما هي نتيجة حتمية وتحصيل حاصل لرواسب نفسية واجتماعية وتربوية تظل حبيسة الوجدان والاشعور، أي ما يوافق مقولة "لكل حديث حادث" ومقولة " كل إناء بالذي فيه ينضح". وتبعا لهذه القاعدة ليس من السليم إصدار أحكام قيمة جزافا على أناس بمجرد الإنصات الأول لمعجماتهم المتداولة وتوصيف لغة تخاطبهم، إلا بعد العودة إلى الخلف واستكناه البيئة الأولى التي أنجبت هذا النوع من اللغة أو ذلك. ولست أجازف حسب ظني لو تبئنا فكرة حمولة الطفولة وثقلها الذي يسافر معنا طيلة أعمارنا عاجزين عن التخفف منه ولو للحظة.

إن أي تعزيز وتأثير إيجابيين لو صاحبا الفرد منا منذ محاضنه الأولى (الأسرة والمدرسة والمجتمع)، فلا بد أن يشكلاه ويؤداه تلقائيا بقاموس تواصلية وسلوكية إيجابيين، بل وتكاد الإيجابية تكون عنوانه الأبرز مترجمة إلى سلوكات يومية. مع الإشارة هنا إلى أن الإيجابية تتحدد بما تقدمه الأخلاق والقيم المجتمعية والدينية من تعريفات، دون الدخول في سفسطات الفلسفة العنصرية. أما إذا هوت الطبيعة وحادت عن هذا المنطق بزواية ما، وأعطى التعزيز الإيجابي قاموسا وسلوكات سلبية، فلا مناص إذن من

إدراج ما حدث في خانة الاستثناءات. ولن نستغرب بعد الآن من تصرف الأم الذكية التي ثبتت على باب غرفة ابنها منذ كان تلميذا في المدرسة الابتدائية، يافطة كُتبت عليها عبارة: "هذه غرفة الدكتور العظيم أحمد زويل!!" لنكتشف بعد ذلك أهمية التحفيزات والتعزيزات والمثيرات الإيجابية التي تنتقش في الفرد استجابات إيجابية في غالب الأحيان، بل وتصنع ما لم يكن في الحسبان، كحالة "أحمد زويل" مثلا. وفي هذا السياق يحثنا خبراء "علم الطفل" أن نسمع أطفالنا كل يوم ما بين عشرين إلى ستين كلمة إيجابية ومحفزة، وتبدو مبرراتهم لهذه الدعوة منطقية ومعقولة. ولن نتساءل إذن بعد ما قيل، ولن نعجب من ديكتاتورية "بينيتو موسوليني" و"أدولف هتلر"، كما لن نثير عجباً حول تشاؤمية "نيتشه" وعبثية "صامويل بيكيت"، كما لن نتساءل بعد الآن عن سَلَمِ "أبي العلاء المعري" تكاليف الحياة !!

لم تكن الأسطر السابقة الفواحة برائحة اليأس والقنوط إلا استشرافا لمستقبل موبوء كان منتظرا، رغم كل المساحيق التجميلية والكذب والافتراءات التي كنا نسمعها خلال موسمي التكوين، حيث كنا نَحْتُّ عن جنان الفردوس "الزائفة". والآن فقط نحتاج شجرة نقطف منها الخبيثة الأولى، فذُعْتَق من إيسار جنة لم تكن في الحقيقة إلا في مخيلة "المؤطرين". فمن يَجُود علينا بتفاحة آدم أخرى؟!

يقول الله تعالى في سورة النازعات: "فإذا جاءت الطامة الكبرى، يوم يتذكر الإنسان ما سعى، وودَّ رَزَّتِ الجحيم لمن يرى" (الآيات 34_35_36). وإن كان معنى الآيات الكريمة ينطبق حصرا على أحد مشاهد يوم الحساب الأخرى، فمن منظوري الخاص، الآيات كذلك تصلح إلى حد بعيد لوصف مشهدنا ونحن طلبة المركز نجتمع دفعة واحدة بإحدى المؤسسات، وكنا على الأرجح كما قال "كُنْثِير" عرَّة: أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا == وسألتُ بأعناقِ المَطِيِّ الأَبَاطِحِ

كل منا كان ينتظر تسلُّم منفاه_مثواه الأخير لاحقا_ بين كفيه، لينطلق في رحلة سيزيفية ومغامرة

طويلة وسط معترك المجهول.

** عدل نازي !!

كنا ننتظر بدهاءً دون مفاجآت، إسناد المناصب الشاغرة في مختلف النيابات للأكاديمية الجهوية حسب ما تم بذله من مجهود ومن عمل خلال فترة التكوين، أي "يوم يتذكر الإنسان ما سعى" كما قال الله تعالى. باختصار، الغنيمة على قدر المردود والحصاد، دون فتح الباب لاجتهادات أخرى. بيد أن السلاّمات والبديهيات ومنطق العقل أمور لا تملك موطئ قدم في بلاد العجائب!! حيث القرارات والقوانين وكل أشكال التسيير والإدارة لا تخضع إلا لخليط من الأهواء والأمزجة والتفكير الآني الترقيعي غير المنضبط بما هو معروف في علم الإدارة والتسيير. فكانت النتيجة ما كانت..

تمتم النائب الإقليمي قائلاً، بعد ديباجة خطباء الجمعة: "...نظراً للخصوصية الجغرافية والطبيعية لبعض المناطق على مستوى النيابة المعروفة بتضاريسها ومسالكها الوعرة، واستحضاراً للبعد الإنساني والديني والاجتماعي أثناء إسناد المناصب للمتخرجين الجدد، قررنا فتح باب التعيينات للطالبات، والطلبة الذكور سيتسنى لهم في مرحلة ثانية التباري على المناصب المتبقية...". هكذا كان خطاب "المسؤول الإقليمي" بمعناه لا بنصه، أقل ما يمكن أن يقال فيه، قول "المعري":

هَذَا كَلَامٌ لَهُ خَبِيءٌ == مَعْنَاهُ لَيْسَ لَنَا عَقُولُ

كان ما سمعناه مفاجئاً، ولم يكن في الحقيقة غريباً لأننا تعودنا على الغرائب والعجائب على مرآنا ومسمعنا في كل مكان. أما الأغرب بالنسبة لي_على الأقل_ مشهد هذا "المسؤول" وهو مُنبرٍ للمرافعة عن "المتخرجات" على أنهن الأولى؛ فمنهن الأخت والابنة والأم و... الأمر الذي أعقب تصفيقات هنا وهناك، كأنما أتى السيد النائب بتفسير جديد لنظرية الفوضى الفيزيائية عوض تفسير "إدوارد لورينز"، أو أوجد حلاً لحداسية "بوانكاريه" الرياضية!! أما الدرجة الأولى من الغرائبية، فكونك تكتشف في سذاجة واستغفال، أن ما تم الخضوع له من معايير لم يكن معمماً عبر النيابات التابعة لأكاديميات التراب الوطني. مما يؤكد من جديد نظرية الهوى والمزاج والارتجال، ونفي وتجميد كل ما له علاقة بالقانون وبالعقود الموقعة سلفاً، التي

لا تشير لا من قريب ولا من بعيد إلى هذه الحجج الواهية الطفولية، وهي التي تسببت بعد ذلك في هضم حقوق أفواج عريضة تحملت مَوَّةَ كونهم حُلقوا حاملين جينات ذكورية!! . لهذا كله لم يحق لنا الاختيار والتلقيب سوى بين المناصب المتردية والنطيحة والمنخقة وما أكل السبع وهلم جرا...على أن لا تُحمل هذه النعوت وتُقرأ على محمل القدر والتشويه لبعض المناطق الجغرافية من بلادنا، وقد استعرتها(النعوت) حقيقة لانطباقها على ما يزهد فيه الناس عادة بشأن الأضحى، ورأيت إلحاقها بما زهدت فيه المتدريبات، كونها لا تستجيب للمعايير الموضوعية التي يتم على أساسها الانتقاء، والمحددة عموماً في القرب أو البعد عن مقر سكن الأسرة، ومعيار توفر وسائل المواصلات وتوفر الماء والكهرباء، وأخيراً معيار توفر المنطقة على طريق معبدة كمعيار كنا نعدّه من الكماليات!! بمعنى أننا لم نتجاوز رأس هرم عالم النفس "أبراهام ماسلو"، ومجموعة الحاجات الأساسية من تصنيف "فريدريك هزربرغ". وكم أخل من إدخال "الماء والكهرباء والطريق المعبدة" في صميم "أحلامنا"، ونحن نعيش "نظرياً" في الألفية الثالثة حيث بلغت البشرية مستوى البحث عن سبل الحياة في الكوكب الأحمر!!

لم يُساوِرنا الاطمئنان قطُّ إزاء مشهد وموقف انعدمت فيهما أبسط شروط العدل والديموقراطية، موقف لم تُراعَ فيه حقوق العباد كما تتبجح بها الحناجر هنا وهناك.موقف أفلح حتماً في بعث نظام "الأبارتايد" من قبره المنسي، في نسخته المغربية، وفي هذه الحالة كان الميز ضد الذكور وليس ضد السود..!

كان النائب جريئاً في بسط قراره ووضع حيز التنفيذ، مع درايته اليقينية بخرقه للقوانين المتعارف عليها في إسناد هكذا مناصب؛ وكونه اتكأ على الأعراف وعلى الاجتهاد الشخصي وعلى أفواه صامته وقلوب خائفة..صحيح..كان متيقناً من أننا _على كثرتنا_ لن نشعل فتيل الاحتجاج مهما أمّرنا ومهما ظلُّ منا. وقد نتساءل: لماذا لم تحتجَّ الجموع الغفيرة هذه على قرار مجحف كذاك!؟

على أبعد تقدير، يحتمل التساؤل أربعة إمكانيات واحتمالات للإجابة، والأول يُختصر في كون عظامنا مازالت طرية، ولم يشتدَّ عودنا بعد في الحياة، ولم نبلغ النضج والوعي الكافيين لبلورة أسئلة مصيرية، من قبيل، علام نحتج؟ لماذا؟ كيف؟ متى؟. ولأننا كذلك لم نخز الاحتجاجات قط خارج مقاعد الدراسة؛ أما الاحتمال الثاني فهو كوننا نتاج وصناعة المصانع المدرسية والأسرية والمجتمعية، التي لا تعترف بحق الاحتجاج، بل وتعدُّهُ أمراً استثنائياً وشاذاً عن الطبيعة البشرية. ولو أفرزت مخرجات المصانع الثلاثة المذكورة مُحتجاً، صُفِّ في خانة الفاسدين والمارقين وعديمي الضمير والمُفرغين من روح المواطنة!! فصرنا مُدجَّنين بقوانين الإذعان والتسليم وإطفاء مَلَكَتِي المناقشة والتفكير. أما البعد الثالث فعلى الأرجح كون الجموع الغفيرة كانت على مذهب "قَيِّدُ صِيُوكَ بالحبالِ الواثقة"، فكيف نغامر بوظيفة أُسقطت من السماء لثلة من المحتاجين؟ سيكون من الغباء طبعاً المجازفة بمدخول قار وقضم أظافر الندم والخسارة مدى العمر. أخيراً، يكون الاحتمال الرابع المترجح لدينا، الحديث عن القاعدة العامة التي طبعت ولازالت تطبع عموم بلدان العالم الثالث_باستثناءات نادرة_، باختصار، استحالة محاسبة أي مسؤول سامٍ كيفما كان، ومهما اقترب من حماقات وجور في حق العباد. أموه وقوله نافذان لا رادَّ لهما، ولا يخضعان لا لمحاكمات ولا لنقاشات ولا لاستدراك. قراراته كاملة لا يشوبها ولا يعتريها نقصان. قوله قول حكيم وسديد كقول "حَزام" العربية التي قال عنها زوجها:

إِذَا قَالَتْ حَازِمٌ فَصَدَّقْهُهَا == فَالْقَوْلُ مَا قَالَتْ حَازِمٌ

وهنا، وكى لا أثير حفيظة النساء من كلامي السابق، فأود تَنْبِيههن إلى كون مرافعتي لم تكن ضدهن البتة، إذ لم تنشب في الأصل حرب بيننا وبينهن، ليدافع بعضنا عن بعض؛ وقرار التعيين حسب معيار "الجنس" ما كان من اقتراح الطالبات، بل كان أمراً عفويًا أخرجته المسؤول الإقليمي من كيسه، والاعتراض المصوغ إذن ما كان ضد فئة بل ضد قرار غابوي ظالم، ذبح العدالة والديموقراطية وحقوق الإنسان ودفنها تحت التراب.

كان الصمت سيد الموقف، وقد جهل أغلبنا ما يقدم وما يؤخر. كنا نؤي أنفسنا والآخرين من جنسنا (الذكوري) في أحلامنا المدرسية المتبخرة. من منا لا يتذكر الأحلام المدرسية البسيطة المسلية، خصوصا حين نفتح أمامها أبواب المبالغات؟؟

كانت أحلامنا مقولبة حسب ما كنا نراه أمامنا من وظائف الكبار..أريد أن أكون مدرسا، طبيبا، ممرضة، دركياً، فلاحا...أما المهندس و مضيعة الطائرة و الريان و...فلم نكن قد سمعنا عنها، ولم نكن لنعرف معانيها حتى لو تصادف و انتهت إلى أسمعنا؛ كونها لا تصلح لأناس عاديين أمثالنا.على كل حال، تأبطنا شرا، وتسلمنا منافينا بقلوب بلغت الحناجر من شدة خوفنا مما يتربص بنا ما وراء الطبيعة. خرجنا من القاعة مجهزي الأحلام ومنكسي الهامات،صامتين، خائفين مظلومين...وكلنا على الأرجح ردد في خاطره قول "الجواهري":

لم يبقَ عِدي ما يترُّهُ الأُلمُ == حسي من اللثبِ الهَمُّ واله رُم

وحينَ تطغى على الحَرانِ جِردُهُ == فالصمتُ أفضل ما يَطوى عليه فُم

يقول المثل الإنجليزي: "إن الدليل على وجود الفطيرة هو أننا نأكلها"، وقياسا عليه يكون الدليل على شقائنا هو فقينا؛ وبالرغم من كون مسألتي الشقاء والسعادة لا ترتبطان قطعا بالمكان ولا بالزمان، لكن أذهاننا التصقت بهذه الفكرة على حال..

هنا، سأردم بضعة تفاصيل لا تكاد تخرج عن دائرة الحيف والظلم ومسكوكة "الموظف في الإدارة العمومية ألعوبة في يدها"... توادع الأصدقاء فيما بينهم وداعا لم يعُبه لقاء، إلا في ما تر من مصادفات لاحقا.

لم تنزل المشاهد الأخروية المصورة بالتعبير القرآني دالة كل الدلالة المعنوية على بعض المشاهد الدنيوية الصرفة، كأنما الآخرة وأحداثها الغيبية مبنية على أس دنيوي يتكرر هناك، طبعا بسينوغرافيا ما وبتفاصيل ما. وأقصد بهذا مشهد الوداع والفرق المشار إليه، الذي ذكرني بقوله تعالى في سورة "عبس":

(فإذا جاءت الصّاحّة، يَوْمَ يَفِرُّ المرءُ من أخيه، وأمّه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه).

== في ضيافة المنفى... ==

حين تتسلل كلمة منفى إلى أسماعنا ومن ثمّ إلى عقولنا، فإننا، وفي غالب الأحيان، نلصق أوصافا قذحية سلبية بكل موضع يحمل هذا الإسم. وارتكازنا الدائم على وعي لا يبرّر ولا يعلّل ولا يتوغل في عمق الأمور، يجعلنا بلا أدنى شك، نختلق أحكاما جاهزة دوغمائية نفسر ونحاكم بها كل الظواهر والمواقف، بل ونصوغ بها كل المفاهيم والمصطلحات تفسيرات وتعريف لا تتبني بالمطلق على قواعد علمية ومنطقية صلبة، فأصبحنا نعرف كل شيء ونعرف كل شيء، تماما كقصة (الخنفسار) وادعاءات الشيخ بطل القصة بمعرفته كل شيء!!

بهذا الفهم والزعم نضفي على المنافي أقدم الأوصاف وأساء النعوت، خصوصا بعد ارتباط النفي بالعقاب وبالجزاء كأحكام تنزل على كل منفلت ومتمرد على القواعد العامة. فالمنفي في اللغة ما ترمي به القدر من الماء عند الغليان، أو ما ترامت به الرّيح من الطحين، أو ما أثارتّه الحوافر من حصى وغيرها، أو ما تنفيه الريح في أصول الشجر من التراب، أو ما يتطرف من الجيش.. وغيرها من التعاريف اللغوية المعروفة. مما يدعونا إلى القول إن المنفي بكل بساطة هو الشخص المزهو دبه جملة وتفصيلا. ولعل القارئ يسأل نفسه الآن قائلا: ماجدوى الحديث عن المنافي، وما علاقتها بتعيين المتخرجين؟!

كانت في الحقيقة شفاها ترداد بكل طواعية وتلقائية عبارة "منفى" بدعي تسلّمنا قرارات التعيين، فكان السؤال قَطْعِيّ الثبوت الذي سُدّ له كل واحد منا: أين أسقطك مدفع النفي؟، والكل طبعا أفصح عن بقاع لم يسمع اسمها من قبل، ولم يعرف موقعها إلا من خلال خرائط ورقية ورّعت علينا. ولكي لا يتحامل

علينا أهل هذه الديار التي نُفَعنا إليها دفعا، بدعوى أننا نَصِفُ أوطانهم وأصولهم الجغرافية بأبشع الأوصاف والنعوت، ولكي لا يُؤَلَّوا القصد الحقيقي من الكلمة إلى تأويل غارق في الذاتية والفهم السطحي، عَدَّتْ إلى رفع اللُّبْس ما أمكن عمَّا كان يتردد على ألسنتنا آنئذ ونحن على فوهة مدفع.. فمن وجهة نظري، كل مكان نعيش فيه مُكْرَهين ومُجْبَرين، مهما سحرَ الأعين وأخذ بالألباب. فالأوطان لا تُحددها شهادات الميلاد، إنما الأوطان حيث الحرية والكرامة الإنسانية وحيث انتفى الإكراه.

(...) كانت دهشتنا دهشة عالم الأحياء "داروين" لما ألقى نظره على سحر جزر "غلاباغوس"

أثناء رحلة "البيغول" المعروفة؛ مع اختلاف في الأمكنة طبعا؛ منا على الأرجح من أصيب بالإغماء، ومنا من فَعَّ فاهُ لبضع دقائق، ومنا من صفعته الدهشة فَوَلَدَتْ لديه أمراضا نفسية شتى، ومنا من تذكَّر فُوقه فتجاوز حالته غير عابئ بالصدمات. ومنا طبعا من ثار في وجه الدهشة وقدم استقالته على الفور وظفر بحريته وعاد إلى حيث أتى، فكان نفيه سياحة كما قال "ابن تيمية". أما البقية الباقية أضحى نفيها بعد ذلك إقامة دائمة، باستثناء بعض المستفيدين من "العصا السحرية" لبعض النقابات، إن على مستوى الانتقالات وإن على مستوى شغل بعض المناصب الإدارية في غفلة من الناس. وهذا موضوع يحتاج لكتاب بحiale...

** على ضفة العالم الجديد..

(...) وطئت قدماي "العالم الجديد"؛ مساحات صخرية شاسعة تخللتها بيوت طينية تقليدية وبعض المساحات الشجرية الخضراء المحتشمة.. مسجد وفقهه. ولعله المشهد المتكرر في المغرب العميق، مع اختلاف فقط في البعد عن سطح البحر.

أما المسجد، المرفق اليتيم الوحيد المنتشر بقوة في عالم القرى، إذ لا يخلو مدشر أو تجمع سكاني من هذه المَعممة التي تحمل رمزيها الدينية وأبعادها الروحية؛ وقد قال "بلوتارك" اليوناني: "أول شيء يفكر فيه الناس بعد اجتماعهم إنشاءً معبد".

إن دور المسجد في الحقيقة متكامل ومنسجم مع جملة الأدوار الأخرى التي تضطلع بها مختلف مؤسسات المجتمع المدني في مجالات التربية والتكوين والتوجيه والتنقيف والإرشاد، وكأن الأدوار هذه عبارة عن نسيج وغزل واحد منظوم بخيط واحد يروم إعداد مواطن صالح منفتح على راهنية عصره ومجتمعه. وقد استمرت المساجد تؤدي دورها الكبير هذا قرونا متتالية، منذ تشييد أول مسجد إلى أن أصاب الأمة الإسلامية ضعف ووهن سياسي واجتماعي واقتصادي كما كتبت كتب التاريخ، فضعف دوره وانحسر، حتى كاد نبضه يتوقف في العديد من الدول المسلمة؛ لكن سرعان ما دبَّت دماء الصحة واليقظة في عروق المسلمين من جديد وفي مختلف الأقطار، وما فتئت المساجد تستعيد دورها الرائد في لمجتمعات تربيةً وتوجيهاً وإرشاداً إلى جانب مؤسسات البيت والمدرسة والمرافق الثقافية... وفي هذا يقول "د صالح السدلان": "إن علاقة المسجد بالمجتمع أقوى من أن تقف عند خمس صلوات تُؤدَّى فيه في اليوم والليلة، ثم يُغلق بابه فيما بين ذلك، وتتقطع علاقته بالمسلمين وسائر شؤونهم وأحوالهم". وهو القول الواصف بعناية حال مساجدنا اليوم المشيدة والمفروشة بملايين الدراهم بغية استغلالها مدة ساعة في اليوم!! وبهذا الحال غدت متاحف تزار لبضع دقائق، لتترك بعدها فارغة على عروشها، لتعود من جديد لانتكاستها القديمة وعهودها البائسة.

ليس من السهل حقيقة التكيف والتماهي الكاملين مع وسط وواقع جديدين لم تَخْرُهما بيولوجيتنا الاجتماعية التي شَبَّنا عليها بتعبير الأمريكي "إدوارد ويلسون".

وليس من السهل أيضا الادعاء أن درجة التكيف البيولوجي والنفسي والثقافي مع متغيرات وسط جديد تتحدد بالمدة المَقْضِيَّة فيه، بمعنى، كلما طالَّت وامتدَّت فترة المكوث في مكان ما، كلما ارتفع مستوى تفاعل وتكيف المرء مع واقعه الجديد؛ بالطبع لن نجازف ببطلان أو ثبوتية هذا الزعم، لأن المنطق السليم ينفي تعميم الأفكار، كون باب الاستثناءات مفتوحا دائما. ولعلنا نستأنس هنا بقول "أبي تمام":

قَلَّ فَوَاكٍ حَيْثُ شَنَّتْ مِنَ الْهَوَىٰ == مَا الْحَبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْطَفِ بِمِثْلِ الْفَتَىٰ == وَحَنِيذُهُ دَوْمًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ

وان كان كلام الشعراء لا يُصنَّفُ ضمن الإثباتات العلمية قطعا، إلا أنه على الأقل سيسري على أقلية ما، أما بيتا "أبي تمام" ذاك فحتمًا شَمَلاني قلبا وقالبا، دون الحاجة إلى الإثبات والتفسير العلميين؛ أما إذا نحَرنا المنحى الصوفي والعرفاني، فنجد "جلال الدين الرومي" يفسر الانتماء على شاكلته المعروفة، حاكيا عن الجمادات أيضا، قائلا عن محنة الناي: "استمع إلى صوت الناي كيف يبيت آلام الحنين، يقول: مَذْ قُطِعْتُ مِنَ الْغَابِ وَأَنَا أَحْنُ لِأَصْلِي..". فبعض الأمور على ما أعتقد تزداد غموضا وغبشا كلما أسرفنا في تفسيرها، تماما كالتكثير في مفارقة أسبقية الدجاجة والبيضة. والله در "نزار قباني" قائلا في "جمال عبد الناصر":

أَحْبَبُكَ لَا تَفْسِيرَ عِنْدِي لِصَوْتِي == أُفْسِرُ لَكَ وَاللَّهِ وَوَيْ لَا يَفْسُرُ؟

لن أسقط حديثي في سرد واستطرادات مملة، ولن أملاً ما تبقى من الصفحات برتابة الصباح والمساء المتكررة كماء النوافير، لكن ومع ذلك ينبغي أن أتباطأ قليلا لأقف على أهم ما هالني في اليوم الأول..

من الطبيعي ومن اللزوم أن يكون المأوى أول محضنٍ يجب توفيره للغريب الوافد، كونه إحدى الضمانات القوية للاستقرار وللحفاظ على السير العادي للعمل، تجنباً للبياضات التي قد تشوبه وتجعله مضطرباً وناقصاً. ولما كان الأمر كذلك، كم صورت لنا الأوصاف الزائفة في مركز التكوين المسكن الوظيفي على أنه يحمل من المواصفات والمزايا ما يجعله يحفظ كرامة عيش المدرس ويُبقي على هيبته وسمعته بين الناس.. كنا نظن _ لسذاجتنا _ أننا سنسكن قصور كسرى أو قصر فيرساي، بيد أن ..

كُلُّ الكَلَامِ الَّذِي قَدُّ لَتَهُ كَذِبٌ == يَا صَاحِبَ وَيْكَ كَمْ تَسْتَعْجِبُ الْكِنْبَا!!

أَمَا تَرَى بَأْنَ الزُّورَ قَائِلُهُ == كَأَنَّمَا فِي مَلَأُلُوقَدِ اللَّاهِ بَا ؟

فَأَحْرَقَ الحُمُّ وَالْأَمَلُ أَجْبَهَا == لِيَصْبِحَ المرءُ بَيْنَ الخُلُقِ مُعْتَرِبَا

على كل حال، وبعد استجماع العزيمة اللازمة للعمل وللجد وللتضحية من أجل أبناء الوطن، وبعد إصرار على تحدي العقبات وعلى كسر أغلال العثرات، وبعد التزام قوي مع النفس على تفادي شكاوى من سبقوني إلى الميدان المهني، ورفضها رفضاً قاطعاً، باعتبارها سارقاًتهم والعزائم... وبعد جملة من الأحلام، بلغت مقر عملي.. وفجأة.. سقط كل شيء..

** على موعد مع الرثاء !!

لم أندهِش ولم أبتئس من حال المسكن الذي من المفترض أن يأويني، كما لم أستغرب من حال مقر العمل حيث سأستأنف عملي ورسالتي، ولم أتضايق قط من وضعِ بات مألوفاً لديّ مُذُ فَتَحَتْ عيني أول مرة. فمن حظي الاجتماعي تواجدي على أرض لم تيرح بعدُ فطرتها وسياستها شِعَار "كم حاجة قضيناها بتركها!!". سأغض الطرف عن تفاصيل مؤلمة عديدة إلا كون المسكن المعول عليه لا يصلح إلا للصراصير!! وقد يعتبر البعض هذا مبالغة من مبالغات الشعراء ومخرجي الأفلام الهوليوودية، ولكن الحقيقة هكذا، ويكفي أن تكون الغرفة الطينية "المحجوزة" على شرفنا مرتعا للجرذان ولكل أنواع الحشرات... لتتضح للقارئ ما يُهيأُ لمدرس في الألفية الثالثة..فكن حكيماً إذن قدر ما شئتَ وساعة شئتَ، وصِفْ هذه الصورة بما شئتَ، واحكم حينئذ بما شئتَ.وأضيف _ لتكون حكمتك ذات معنى_ أن الصورة هذه ظلت ثابتة عدة سنوات بنفس الألوان وبنفس البرواز!! أما إن حدثتكَ عن الفصل الدراسي وحاله، فأختصر الكلام قائلاً أنه جدرانٌ تُثُّ سقفاً غائب، ونصف باب ونوافذ غائبة وتلثا سبورة ومقاعد مهترئة؛ هذا شكل فصلنا الدراسي بعد خمس وأربعين سنة من الاستقلال!!

بهذه الفاتحة وبهذا الحال خطوت خطواتي الأولى في مساري المهني، حينها فقط عرفت الوجه الحقيقي للسياسة المتبناة من لدن الحكومات "النبيلة" المتعاقبة تباعاً على هذا البلد "الأمين"، والتي جعلت الوضع في صورته الثابتة منذ رحيل المستعمر. وهذا حظ الشعوب التي تنتخب وتصطفي خبراء في التهميش والتجهيل.

ولن أبالغ لو قلت متحسراً: ما خلا رجلٌ بسياسةٍ إلا وكان النفاق ثالثهما، طبعاً مع استثناءات

نادرة..

كُلُّ الفِضائلِ بِالسِّيَاسَةِ لُطِّخَتْ == وَغَدَ نَا أَخٍ لِأَخٍ عُوًّا أَكْرَا

سَادَ السِّيَاسِيُّ الخَلَائِقَ مِثْلَمَا == دِيكَ يَكُونُ عَلَى الدَّجَاجَةِ يَصْرَا

لَهُمْ إِذْنَ أَيَّامٍ عُمْرِكَ وَأَرْحَمَنَ == حَيْثُ الْمَصَائِرُ لَا تَبَاعُ وَتُشْتَرَى

ومنذ ذلك الحين فقط، كلما سمعت عنصرية يتحدث فيها مسؤول حكومي عن التطور والتقدم الملموسين اللذين عرفهما الوطن في مجال التربية والتعليم، وعن الجهود المبذولة لتجاوز العقبات "اليسيرة" لنكون في مصاف الدول المتقدمة في هذا القطاع، انفجرت من الضحك.. في حين أن تمام السخرية والاستهزاء قد تَمَدَّلاَ لدينا بَثْوًا سَوِيًّا في الخامس من أكتوبر، حين يدعي هذا البلد أنه يحتفل باليوم العالمي للمدرس، بعبارات وبجمل تكتبها وتختتمها موظفة تجلس على كرسي جلدي فارغ، وفي مكتب مكيف أنيق يتسع مساحةً لمؤسسة تعليمية بحيالها.. فْتَحَّرُ وتُدْبِجُ الوزارة الوصية "الحنونة" خطابا من حبر أسود، كمكافأة تثمن ما تتكبده البروليتاريا التربوية في مختلف ربوع البلاد، ولا تتكلف الموظفة "المنقلة" بالمشاغل طبعا إلا بتغيير تاريخ الإرسال وترقيم المذكرة. وكلما اقترب هذا الموعد "الهام"، نقرأ كل سنة مَطَاقَةً عكاظية نقول: ".. يقف المجتمع الدولي في مثل هذا اليوم من كل سنة وقفة إجلال وإكبار، ليووجه لكل نساء ورجال التعليم في أنحاء المعمور رسالة محبة واعتراف بجليل الأعمال وجدية الالتزام في أداء الواجب المهني، بما ينمي قيم المواطنة ويساهم في بناء المجتمعات الإنسانية ورفي الحضارات. إنها لحظة تاريخية تكتسي دلالات رمزية متعددة الأبعاد، باعتبارها محطة تربوية نستحضر فيها جميعا معاني النبل والتضحية وسمو الرسالة التربوية التي يضطلع بها نساء ورجال التعليم، الذين لا يدخرون جهدا في استجلاء أفكار الناشئين والشباب وإيقاظ مشاعرهم بالمحبة والاحترام وتنوير عقولهم وتنمية مداركهم. وبدورنا نحتمي في المغرب بأسرة التربية والتكوين التي بهذه المناسبة ...

إليكن نساء التعليم واليكم رجال التعليم تحية احترام وتقدير."

بهذه الخطبة المنبرية العصماء يخاطب السيد الوزير مدرسا يُعَدُّ وضعه المادي والمهني أسوأ وضع عرفه الممارسون على الصعيد العربي، ولمن انتابه استغراب في ما أشرنا إليه، فليُكَلِّبْ رفوف الجامعات والمنظمات المأوى بالإحصائيات والدراسات التي تضع بلدنا في أذيل الترتيب. ولنظنَّ بكل

بساطة على التقارير الدورية لجامعة شنغهاي الصينية للتأكد من صحة ما زعمناه؛ مما يجعلنا في غتية مرة أخرى عن الأشعار الفخرية التي تؤذي آذاننا كل سنة..

هكذا كانت المدرسة المغربية ولا زالت تنتحب إلى يوم الناس هذا، كل شيء في واقعها وحالها ثابت لم يتغير، بل ولن يتغير، حتى تتأسس عقليات أخرى تضطلع بمهام تسيير شؤون هذا الوطن، فالسياسات العتيقة المتبناة على مستوى الإدارة والتسيير وعلى مستوى التنظير والتخطيط، هي في الحقيقة ما يجعل آفاق انطلاقتنا الأخرى محدودة جدا؛ الأمر الذي سيجعلنا حبيسي أماكننا وأوضاعنا الراهنة، مهما تغير الزمان والمكان حولينا تغييرا سريعا. بل هي السياسات ذاتها التي تضخ أبناء الوطن في الضفة الأخرى أفرادا وجماعات، أملا في بلوغ حياة الانعتاق والحرية، وسعيا للعيش في فضاءات تُفدّر الذات وُجهدُها المبذول.

سأقفل خواطري ها هنا، لا لأني استنفدتُ كل ما وددتُ قوله، ولكن الأيام المتوالية في منفاي هذا اعتنقت بي منطق الرتابة والتكرار، وهنا لا بد أن أستسمحَ الحسن البصري" لأخالف كلامه الحكيم القائل: " ما من يوم يُثِقُ فجرهُ إلا ويُدُّ نأدي: يا بن آدم، أنا خلقُ جديد وأنا فيما تعمل عليك شهيد...".؛ ففي مهنتي هذه، كل يوم خلق قديم يعاود نفسه، وكل يوم يورث تاليه نفس الرتابة والوضع..وقد يتساءل متسائل الآن: لماذا لا يتم تكسير هذه الرتابة والنمطية المزعومتين في العمل التربوي، ولماذا لا يتم تجديد آليات العمل والأدوات التربوية لبلوغ درجة "العمل الممتع" ؟ أ هُ و تقصير من المدرس نفسه ونكوص منه واستسلام للظرف اليومي وعجز عن إدراك الأفضل ؟

سيكون هذا التساؤل المنطقي طبعا في محله لو صرَّ عن شخص غير ممارس مهنتي هذه، أو صدر عن شخص سمع عنا ولم تأتِه الأنباء بالخبر اليقين. لماذا؟

لأن المدرس ببساطة لا يشتغل بمفرده على رقعة المؤسسة التعليمية، وإن كان حقيقة يعمل في

فصله بشكل مستقل. فما الذي ضيق على حريته وجعله تحت نير النمطية والتكرارية؟؟

يقول "كارل بوير": "الحرية لا تعني صكًا يوقّعه المستعمر بالخروج من البلد، بقدر ما تعني تحرر الإنسان داخل بلده من انشغال بضرورات العيش، وتخلصه من هموم الحياة اليومية وتفرغه لممارسة الفعل الخلاق". وأشير هنا بالطبع إلى أعداء الحرية الثلاثة : الوزير والمفتش ومدير المؤسسة؛ أما المقرر المدرسي فهو مخلوق تربوي يعادينا بشكل غير مباشر، وإن كان هو الآخر يفتح الباب لمجموعة من الملاحظات التقنية والتربوية، وهذا موضوع آخر..

طبعاً لا ينبغي أن تجرنا مخيلاتنا إلى حد تخيل العداة المادي الصّرف والعنف الجسدي البواح، وإن كان الأمر أحياناً ليس بمستحيل، فحيث ينتقي العقل والحوار والسلوك المدني المتحضر تبرز لغة الجسد وفوضى الحواس؛ والله در المتتبي قائلًا:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى == عُنُوطًا. مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بِدُّ

== السيد الوزير :

تؤمن كل ديموقراطيات العالم الحديث بالاستوزار كعملية تتم على أساس الكفاءة والمهنية والمعرفة الشاملة لكل الهيئات المحيطة بالقطاع المراد تسييره وإدارته؛ وتؤمن كذلك بضرورة ممارسة الوزير أعمالا في إطار هذا القطاع، تَمَكُّهُ من إصدار الأحكام العادلة والمنصفة، وسقِّ قوانين تخدم كل الممارسين بتراتبيتهم المختلفة. هكذا يكون من المنطقي بمثال بسيط استوزار شخص في القطاع الفلاحي، مَارسَ وخرَّ الفلاحة وأحوالها ومشاقها، وخبر الأرض والحَبَّ والزرع وتغيرات فصول السنة؛ أما الاستوزار المعتمد على "تَعَفُّات" المعارك الانتخابية والسياسوية في مستوى أول، أو على شهادات أكاديمية وكفاءة نظرية في مستوى ثانٍ، فهو استوزار منقوص، كونه لا يشترط المعرفة الحقيقية بواقع الناس وأحوالهم.

وهل وَجَدْتَ وزيرا في القطاع الفلاحي قضى عمره بين صناديق الانتخابات وبين أقلامه وأوراقه جَرَّبَ استعمال معول وفأس و تأمَّلَ في الأخاديد التي يحفرانها في كف الفلاح؟؟ هذه طبعا ليست دعوة للصفح عن المسار الأكاديمي والدراسي جملة وتفصيلا، لكنني أؤكد على الممارسة الفعلية كشرط أساسٍ لتبني عليها قرارات تلامس الواقع؛ ولا يكون الوزير كأحمد شوقي الذي كتب عن الفقر والفقراء وعن الجوعى المصريين وهو غير مُجَرَّبَ لشيء من هذا القبيل في بلاط الخديوي!! وعلى هذا الأساس فطنت الدول المتقدمة لهكا أخطاء وأعادت ترتيب شروط تَقَدُّد المناصب الحساسة والمصيرية، فكانت المهارة والكفاءة والخبرة والقدرة العالية على التواصل على صدر اللائحة، بينما يأتي شرط الشهادات الأكاديمية والبحوث الدراسية في الترتيب الثالث عشر!! إذ ما جدوى وزير عالم غير متواصل ولا تربطه بالواقع إلا أوراق ملأى بأرقام ومذكرات نمطية؟

إن ما يُفقد مؤسسة ما بشكل عام دورها الإداري والتسييري تعاليتها وبعدها عن الشؤون الحياتية اليومية للفئات العريضة المصنفة في أسافل الترتيب والسلم الاجتماعي، أو القاعدة التي تكابد عَظَمَ المجهود وقلة الأجر، أو لِ تَهَى صغار الموظفين والمهنيين القائمين بالجزء المهم والأكبر من العمل في

سلسلة الإنتاج العامة خصوصا إذا تُعْمِلَ مع هذه الفئة بمنطق اقتصادي ودُظِرَ إليها بعين العائد والريح ، وغض الطرف عن المقاربة ذات البعدين الاجتماعي والإنساني بين المُشْعَلِ والمُشْعَلِ. ولسنا نحتاج تذكير القارئ بما خلاّفه السلوك المتعالي هكذا من ثورات واضطرابات مدنية وحركات تحريرية وفلسفات أصبحت تُظَرُّ لمشروع الانعتاق من أغلال وسجون مالكي وسائل الإنتاج، ومن قوانين الحكومات الجائرة في حق المستضعفين. وفي هذا السياق العام، بدأ مفهوم الإدارة والتسيير يتطور وبدأ ينحاز نوعا ما في أدبياته إلى المقاربة الإنسانية التي، أخذت تعتبر العامل والموظف كائنا بشريا له مع واجباته حقوق لا يمكن إنكارها ودفنها تحت الفكر الاقتصادي السلطوي، متحررا بذلك من عبودية مطلقة وحياة أقرب ما تكون حيوانية مُنَلَّةً، خصوصا إذا استقرأنا أعمال "التون مايو" (تجارب هوثورن)، وأعمال "أبراهام ماسلو" وسُلِّمَ الهرمي المعروف. والأعمال اللاحقة التي سعت إلى دمج ما هو إنساني بما هو اقتصادي؛ ونشير إلى نظرية العلاقات الإنسانية في الإدارة لـ "ماك غريغور"، ومفادها كون المعاملة الحسنة والافتتاح وإبداء الاهتمام أدوات مهمة في تحفيز العمال والموظفين وليس المال فقط ما يحركهم، خلافا للمقاربة العقابية الداعية إلى إجبار الفرد على القيام بالعمل سواء بالابتزاز المادي أو بالعقاب المعنوي. ولكم أبدع الشاعر مصورا محنة وصبر من تحملوا ما لا يطيقونه قائلا:

وإن تَكُنِ الأَيَّامُ فِينَا تَجَلَّتْ == يَدِئُسْ وَدُعَى وَالْحَوَادِثُ تَفْطِي

فَمَا لَيْتَ لِمَعَا فَضَلِيَّةً == وَلَا نَلَّأْتَنَا لَلَّتِي لَيْسَ تَجَلُّ

ولكن جعلناها فؤوسا كريمةً == تَحْمَلُ مَا لِإِسْتِطَاعٍ فَتَحْمَلُ

وَقِينَا بَحْنِي الصَّبْرِ مِمَّا نَفُوسَنَا == فَصَحَّتْ لَنَا الأَعْرَاضُ وَالنَّاسُ هُرُّلُ

وما دمنا في سياق المقاربة الإنسانية دائما، قال الأديب الروماني "ثيرانتس": "أنا إنسان، فمن

الطبيعي إذن أن أتعاطف مع كل ما هو إنساني"، في حين كتب الألماني "إيمانويل كانط" معترفا: "بدأت

حياتي ظانا أن رقي الإنسان وشرفه رهْنُ ما تحصّل لديه من المعرفة، إلى أن استيقظتُ وعلمتُ أن الإنسان يكون كذلك بمقدار ما يكون إنسانا، فبدأتُ أعلم نفسي كيف أحترم الإنسان."

سأعرج عائدا إلى واقعي الحقيقي تاركا الأحلام جانبا وما بلغته الديمقراطية، مستبعدا من منحوا القيمة اللائقة للوجود الإنساني، فالإنسان كما قال "نيتشه" يعيش حسب ما تحصّل لديه في الواقع لا كما يتمناه. فيلادي دون البلدان الأخرى، تُعَوّف الأشياء عكس ما تعرفه بها القواميس "الطبيعية". فالوزير المسؤول عن القطاع التعليمي _وقس على جميع القطاعات_ ببساطة رجل قُدّم له هذا المنصب لاعتبارات متعددة، لا يعرف عن واقع التربية والتعليم إلا ما يصل ديوانه من تقارير مَوّت من آلات التعديل والتجميل النيابية والأكاديمية؛ فيكتفي بقراءة _ إن تكرم وقرأ _ وضع أفلاطوني مثالي، كل شيء فيه على ما يرام. والأسوء أن كل قراراته تتبني على إحصائيات وأرقام زائفة متخيلة في غالب الأحيان. فلا يجدر بنا بأي حال من الأحوال الاستغراب والاندهاش من الغيبوبة الدائمة التي أصابت هذا القطاع منذ الاستقلال. ومن الطرائف (الوزارية) أن غنا ذات مرحلة زمنية مسؤول سابق في القطاعي الفلاحي وزيرا في القطاع التربوي، فما كان يسري على المواشي وا لأعلاف سرى علينا بنفس المنطق!! من باب حوثة الإنسان بتعبير "ممدوح عدوان".. لنعيد عقارب الساعة إلى موضعها الأول، مع معضلة " الرجل المناسب في المكان المناسب".

تُضِي السُنْدُونُ وَيُضِي بُوْحُهُ أَ مَعَهُ أ == وَالْعُمْرُ آخِرُهُ يُطْفِرُ عَلَى الرَّيْدِ

كُلُّ الْغَرَائِبِ قَدْ نَرُضِي تَحَقُّقَهَا == إِلَّا غَرَابَةً مَا أَلْقَاهُ فِي بِلَادِي

إِلَّا نُسَاقُ إِلَى الْمَرَعَى كَمَا أَشِيَّةٌ == وَنَحْنُ مِنْ عَلَمِ الدُّنْيَا عَلَى كَبَدِ

يَا لَيْتَهُ زَمَنِي صِفْرٌ وَمَنْعَدُمْ == "وَلَيْتَهَا الْأُمُّ لَمْ تَحْطَى وَلَمْ تَلِدْ"

من نافلة القول أن نقول صائحين: إن كراسي الوزارة تحتاج أشخاصا عرفوا ما يكفيهم من معاني

الوطنية وتشربوها معرفةً وممارسةً؛ أشخاصا خبروا القاع والعمق الشعبي وشربوا من مرارته وتذوقوا آلامه؛

أشخاصاً يأكلون مأكلاً ويشربون مشرباً بني جلدتهم؛ أشخاصاً يفتحون قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم راصدين نبض الشارع؛ أشخاصاً يعاينون عن كثب ويلامسون الوضع الميداني دون توسل وساطات كاذبة مصلحية خائنة، ولا يكتفون بتسويد وتحبير المذكرات والتنظير داخل حدود رقعة المكاتب الفخمة والفنادق المصنفة.. ولقد كنا لسنوات طويلة ولازلنا نعاني ويلات ومعرات هذه السياسات الأحفورية المنتهجة، التي أتت على آمال شرائح عريضة بجرة قلم يسيرة وبمزاج متقلب، مانعة إياهم أبسط الحقوق البشرية البسيطة، سالكة منهج "ميكياڤلي"، ذاك الذي كان ينصح الأمير بمنح الحقوق للشعب قطرةً قطرةً ليحسوا بلذتها وطعمها.. وفي هذا السياق لابد أن أضع الأصبع على معضلتين حفرتا ثقبين غائرين على جبين الوزارة الوصية، بل هما زنزانتان ابتلعتا قسماً كبيراً منا، وجعلتا كل أيا منّا تصطبغ بالسواد. وهما باختصار، زنزانة الحركة الانتقالية وزنزانة المنع من متابعة الدراسة الجامعية..

== الحركة الانتقالية :

ارتأيت الحديث أولاً عن الحركة الانتقالية كونها معضلة أشد وطأة على النفس من أختها؛ ولست ملزماً طبعاً بالتعمق في تفاصيل فنية إبدائها أو إغفالها لن يزيد القارئ شيئاً، ولكن أكتفي بما يبدو لي على الأقل إجحافاً وظلماً وتجاوزاً على الحريات والحقوق الطبيعية. وهنا يمكن أن أجيب كل الذين استغربوا مكوثي الممتد في منفاي هذا، ظناً منهم أنني مغتبط بما أنا فيه، ورافض العمل طواعية بجانب أسرتي وعثرتي. ولإزالة استغرابهم ذلك لا بد أن نشير إلى أصل الداء، أما الدواء، فبحثنا عن فرج سماوي مازال جارياً ومستمراً، لأننا استنفدنا جميع الأدوية الأرضية والبشرية على السواء...

من نافلة القول التذكير بسواء الناس أمام القانون، بل وأمام الأعراف البشرية البسيطة؛ وكلنا نتفق كذلك أن كل الشرائع السماوية والأرضية لم تجانب هذا المسار الطبيعي المقبول عقلاً وفطرة؛ من شرائع "حمورابي" إلى عصر التنوير وصولاً إلى القوانين الحديثة الأكثر إنصافاً واحتواءً لكل الاختلافات والتميزات البشرية من حيث الجنس واللون والعرق، ناسفة النظرة الأرسطية القديمة القاضية بفكرة كون الناس ليسوا متساوين بحكم الطبيعة، وإنما يولد بعضهم للعبودية، ويولد الآخرون للسيطرة.. ولن نستغرب حقاً رسوخ هذه النظرة البدائية الإقصائية في أذهان الكثيرين من المعاصرين، بالرغم من الزمن السحيق الذي يفصلنا عن زمن "أرسطو"، إذ كيف نفسر حملة تحرير العبيد والسود في أزمنة ليست بالبعيدة عن زماننا؟ كلنا يتذكر "أبراهام لنكولن" و"مالكوم إكس" و"مارتن لوثر كينغ" و"شي غيفارا" و"تيلسون مانديلا" وغيرهم ممن ناضلوا من أجل فكرة التحرر والتساوي البشري، قاطعين بذلك مع عهود كانت تولي الاهتمام للمقاييس وللمعايير البيولوجية الخارجة عن إرادة الإنسان. ومع تحقق ذلك في البلاد الغربية بنسبة مهمة، لازالت دول العالم الثالث تزرع تحت نير فكرها التقليدي، وفيه لمذهب "أرسطو"، ومستمرة على ولائها للميز العنصري الذي دفتته الأديان والشرائع، وأزال أثره "مانديلا" منذ عقود فقط... ومن جديد أشكّل الإنسان على أخيه الإنسان كما قال "التوحيدي". فهل ثمة داعٍ لهكذا مقدمة؟؟

لم يكن ليجرنا موضوع "الحركة الانتقالية" إلى التذكير بالسطور أعلاه، لولا ما في النفس من حرائق لم تتطفئ بعد، ولولا الإحساس بالظلم وبالقهر، ولولا ما هو ثاوٍ بين جوانحي من ندم شديد على أول يوم قررت فيه الانتساب لمستتقات هذه المهنة. وكيف لا يصح هذا ومجمل ما تتبني عليه هذه المعضلة تمييز عنصري غير مبرر؟؟

لَكُمْ أعلتُ فكري ومخيلتي لأبرر ولأجد مسوغا ما يجعل المعايير المعتمدة منطقية وعادلة غير مجحفة، لكن أقصى ما بلغته لا يجعلني إلا أن أصف المعايير تلك بالقاتلة، بل ولا أجدها إلا شبيهة بما كان يعتمد في محاكم التفتيش الأوربية في القرون الوسطى لإدانة عالم أو مفكر أو فيلسوف...ولأقربَ القارئ من "جنتنا" هذه ومن الصورة عامة، أود أن أعرض الأولويات التي تضعها الوزارة الوصية أمام أصناف المترشحين المختلفة، بدءا بصنف الملتحقات بأزواجهن، ولو عَمَلْن لسنتين فقط، على رأس القائمة، يليهن الملتحقون بزوجاتهم الموظفات في القطاع العام أو الخاص، يليهم المتزوجون بغير الموظفات (كأنما ربات البيوت بلا عمل، ولاداعي أن يكون أزواجهن بجوارهن، خصوصا إذا كن غير متعلمات، بل حتى ولو أنجبن معاقين جسديا أو نفسيا!!عجيب)، تليهم العازبات، والعازب في آخر القائمة..فلو جاز أن نتبع مقارنة رياضية بسيطة، فكيف نضع من اشتغلت لسنتين فقط مع من ضاع أكثر من ثلث عمره بين أحضان الجغرافيا الوعرة على سِطٍ ومستوى واحد، بل الأولى أولى؟؟ وإن جاز اتباع مقارنة إنسانية واجتماعية، فما الفرق بين موظفة وربة بيت من حيث ما تبدلانه من جهود خارج وداخل الأسرة؟؟ بل الأعجب من هذا وذاك، الأولوية المعطاة لموظفة لم تتجب بعد على أم لأربعة أو خمسة أبناء!إاذن، إذا كان لديك أيها القارئ الكريم عقل كبير فأقنعني فدَيْتُكَ بأن التصنيف الذي أسلفته لا يدخل في باب الميز العنصري الصريح.. أوليست القوانين الوزارية بهذا تَحْمَلُنَا جريرة ازديادنا ذكورا وليس إناثا؟! ظلم في التعيين وظلم في فرص الانتقال!! مصيبة حقيقية..

فما دامت الأمور غير الطبيعية تحتاج أدلة غير طبيعية بتعبير الفلكي "كارل ساغان"، فثمة إذن تفسير وحيد لهذه المتراجحات كلها، وهو التفسير القديم والحديث الذي تدخل فيه السياسة والمصالح الحزبية والنقابية خصمًا وحكمًا في الآن نفسه، الدهليز الذي يسمح لإقامة القوانين ورساء المعايير حسب مقاسات أسر المتحزبين والنقابيين وعوائلهم ومعارفهم بشكل عام.. أما من دافعوا بشراسة عن التصنيفات السالفة بدعوى مراعاة مصلحة أبناء الشعب من المتعلمين، فأقول لهم متأسفا: مات جحا وخفتموه ، فكنتم خير خلف لخير سلف!! . أما من تحايلوا على ما قيل، وأخرجوا الشعرة من العجينة تلك، فقد عملوا بنصيحة الشاعر:

حين استقام ولم يفز بمومه == اعوجَّ كي تُقضى له الأوطار

وأما من أعيتهم الحيل والمناورات، فقد قدموا قرابين لا تخطئ المسعى، بل وتصنع المستحيلات، عاملين بنصيحة الروائي الفرنسي "إميل زولا" قائلا: "القوانين مهما كانت قوية لا بد أن ترزع أمام قطعة نقدية معدنية"، أو نصيحة أحد الفلاسفة قائلا: "درهم قوة خير من كيس من الحقوق". فمن نستصح الآن، الشاعر أم الروائي أم الفيلسوف؟؟ وما عسانا نصنعه أمام ثلة من المتحكمين في مصائر الناس وفي متغيرات حياتهم سنة بعد سنة والحال لم يتغير بعد، بالرغم من النداءات المتعالية بين الفينة والأخرى هنا وهناك؟؟

أترجو في الجراد صلاح أمرٍ == وقد طبع الجراد على الفساد؟

== متابعة الدراسة الجامعية..ممنوعة !!

كانت الكنيسة في القرون الأزمنة القروسطية تُحَصِّل أموالا طائلة ببيعها "الجنة" للناس عبر صكوك الغفران المعروفة. ذات يوم ذهب يهودي للبابا وقال له: بما أنكم لا تستفيدون من "جهنم" فبيعوها لي إذن؛ فكان أن باع البابا جهنم لليهودي بصك وبثمن بخس. بعدها انصرف اليهودي وأخذ يقول للناس لماذا تشترون الجنة وقد اشتريت جهنم وأقفلتها، وهي الآن لي وحدي؟؟؛ فامتنع الناس فعلا عن شراء الجنة وانخفضت مداخل البابا والكنيسة. فلما استفحل الأمر ودرس رجال الكنيسة الوضع، قرروا شراء جهنم من اليهودي بثمن باهظ. وهكذا اغتنى اليهودي وزاد النصارى ضلالا آخر على ضلالهم القديم!!
فما علاقة القصة بالموضوع أعلاه؟

لئن كنا متفقيين على حقيقة الوهم الذي كانت تستثمر فيه الكنيسة رساميلها وتسويقها للكذب وللخرافة، فإننا حتما سنتفق على الكذب والأوهام والأمانى التي كانت "وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر" توهم به نساء ورجال التعليم، الراغبين والراغبات في متابعة دراستهم الجامعية، مادام التوظيف في قطاع التعليم الابتدائي اقتصر على الشهادة الثانوية؛ الواقع الذي حدّم علينا ولوج باحات الجامعات المختلفة، رُفَعاً وتنميةً لمستوياتنا المعرفية والثقافية، مما سيؤثر إيجابا على مستوياتنا المهنية بعد ذلك؛ لكن الرياح جرت كالعادة بما لم تشتته السفن...

لتحيا الغرابة من جديد في وزارة توافق على طلبات متابعة الدراسة، لثمننا في الوقت نفسه الجامعات التابعة لنفس الوزارة.. كأننا تمنحنا صكوك غفران بكف وتنزعها منا بكف أخرى، بدعوى أننا موظفون.. عجيب!! أليس مانح الرخصة عالما بأننا كذلك؟؟ أليس من الغريب أن تلعب الوزارة ثوري المانع والمانع في ازدواجية غير مفهومة وغير مبررة؟؟ ألم نتجاوز بلاد العجائب إلى بلاد الألغاز؟؟ والأهم من هذا وذاك، أليس حقنا في التعليم، كحق من حقوقنا البشرية الطبيعية المشروعة، وتحت هذه

المتناقضات، حقا مهذرا ومُعَطَّأً من لائحة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بالنسبة إلينا ؟ ألا يُعيدنا هذا الوضع حقا إلى زمن ما قبل الثورة الفرنسية، بل إلى زمن ما قبل اختراع الكتابة ؟!

باختصار شديد، كلما تقدم العالم خطوة أو خطوتين مستشرفا المستقبل والغد الأفضل، إلا و فاجأنا هذا العالم بالنكوص والعودة إلى أقبية المظلمة، إلى العصور التي تركها هذا الأخير في بطون أرشيفه، يُنْكُرُ بها مجاليه كلما تحركت فيهم نوازع التعصب والتخلف والسواد الإنساني، راسما أمامهم هذه اللوحة الدموية، ليعلموا أن أسلافهم كانوا أقرب من الزواحف الضارية منهم إلى البشر!! خصوصا في مواقفهم غير الإنسانية مع حملة العلم والتتوير والفكر الجديد، مع من حطموا النمط الإسمنتي السائد والمعرفة الجاهزة الموروثة. ولن نحتاج للتذكير بضحايا محاكم التفتيش التي كانت منكبنة على مصادرة كل جديد معرفي وعلمي لا ينتظم مع العقل الكنسي الجمعي؛ ونشير هنا إلى "كوبرنيكوس" و"غاليلي" و"جيوردانو برونو"

و"تيخو براهي" و"لافوازييه" وغيرهم؛ ولقد صدق "ريتشارد سيمون" قائلا: "من الخطير أن تعرف ما لا يعرفه الناس"، وهو الذي أحرق كتبه الناقدة لتعاليم الكتاب المقدس خوفا من الاضطهاد الديني وسطوة الكنيسة. ولا داعي إذن لفتح الملفات الطويلة للصراع التاريخي بين السلطة والعلم المعروف على كل حال. والعجيب في حاضرنا اليوم، قبول العيش في ماضي الآخرين بكل فخر واعتزاز، فاتحين ملفات أغلقتها الدول المجاورة منذ قرون؛ وندعي بلا خجل في منبرياتنا استشراف الغد والمستقبل ومسايرة الركب العلمي ولثقافي والحضاري على صُعُدِ دِشْتِي!!

ولما أعادت أنظمتنا عقارب الساعة إلى ساعة الصفر، بدأت فئات عريضة في الألفية الثالثة، عصر نظريات "الفوضى" و"الأكوان المتعددة" و عصر تجاوز "سرعة الضوء" و"زرع" رأس بشرية، تناضل من جديد عن حقها في التعليم وتمام مسارها الدراسي.. والغريب دائما أن الوزارة ذاتها تطالب الفئات نفسها المكبوتة والمسقوفة أكاديميا بتحقيق الجودة المطلوبة في التدريس وفق آخر المقاربات البيداغوجية

والديداكتيكية على مستوى العالم!! ولست أشك بعد هذا كله في الداعي خلف قول "معروف الرصافي" _ بلا
تعميم طبعا_:

قَدْ كَانَ لِي وَطَنٌ أُبْكِي لِنُكْبَتِهِ == وَالْيَوْمَ لَا وَطَنَ عِنْدِي وَ لَا سَكُنٌ

وَلَا أَرَى فِي بِلَادٍ كُنْتُ أُسْكُنُهَا إِلَّا حُدَاةَ نَاسٍ قَاعَهَا الزَّمَنُ

أما في ما يُقَالُ إلينا من كيس أعدار الوزارة الوصية، فغالبا ما يتشدد السيد الوزير بمانع النزيف
الزمني المترتب عن السماح للمدرسين بمتابعة دراستهم، بمعنى آخر، دراسة المدرس تسرق الزمن
المدرسي من أبناء الوطن ببساطة، كأن الوزير يجهل عدم إلزامية الحضور الفعلي في مدرجات الجامعة
إلا في فترة الامتحانات المحددة في ستة أيام خلال سنة كاملة. هذا عذر أقبح من زلة، ومنع من أجل
المنع لا أقل ولا أكثر؛ أما إذا اعتبرنا فضيلته قرده عليا أو ذات خلية واحدة ولسنا بشرا فهذا تبرير نقبله!!
أما لو تكرم فضيلته متجاوزا واعتبرنا من البشر، فعلى الأرجح يكون قد وضعنا مع سلالة الزنوج ذوي
التجويف الجمجمي الصغير، أولئك الذين لا ينبغي تعليمهم أكثر مما تتحمل أدمغتهم الصغيرة، حسب ما
أدعاه العالمان التطوريان المجرمان "توماس هنري هاكسلي" و"لويس أكاسيز"؛ أو يكون فضيلته وضعنا
مع الفئات التي لا ينبغي تعليمها الحكمة، كونها ستعرض للضياع كما ادعى "أفلاطون" في جمهوريته،
وكما ادعى "فولتير" قائلا: "إذا تعاطت الدهماء التفكير فسوف يضيع كل شيء". لكنني أرتاح حقيقة في
خضم هذه المبررات لمبرر وحيد يمكن أن يسوغ إلى حد كبير هذا المنع، وهو ما صاغه المفكر "علي
عزت بيغوفيتش" قائلا: "يكون الحيوان خطيرا عندما يكون جائعا، أما الإنسان فيكون خطيرا عندما
يشبع!!".

لعل الارتجالية والمزاجية أصبحتا مُؤَيِّنَ فعليين على الساحة الإدارية والتخطيطية والتسييرية
بشكل عام، وبأكثر مما كنا نتصور أن كنا عجائن يُشكِّلُنا التياران السياسي والثقافي كما يشاءان؛ أمزجة
جمعت الشيء ونقيضه دونما تكلف لأدنى مشاعر الخجل، أو حتى إبداء إرهاصات بسيطة للاعتذار؛ والله

در "نزار قباني" قائلا: "نحن ضائعو الهوية، لا ننتمي إلى أحد ولا إلى شيء ولا إلى أنفسنا. إننا بكل أسف شعب المصادفات التاريخية، بالمصادفة نحب وبالمصادفة نكره، وبالمصادفة نتحد وبالمصادفة ننفصل، وبالمصادفة ندخل الحروب وبالمصادفة نخرج منها، وبالمصادفة نولد وبالمصادفة نموت!!"

طبعا لن أستطرد في ملف الذين استطاعوا اختراق هذا الحاجز والحائط المزاجيين القانونيين، مستعينين بما نُكر أنفا من..ومن.. ظافرين بحقهم المشروع بما ليس مشروعاً، عملاً بمنهج "كل قانون قانون مضاد". وقد صدق الأديب قائلا:

ولكلّ شيءٍ آفةٌ من جنسه == حتى الحديدُ سَطًا عليه المُرْدُ

أبعدَ هذا التلاعب والاستهزاء والاستهانة بالحقوق البشرية الطبيعية سنعجب من الياباني "توبواكي نوتوهارا" مؤكداً في كتابه الموسوم بـ "العرب، وجهة نظر يابانية" أن "الحكومات العربية لا تعامل الناس بجدية، بل تسخر منهم وتضحك عليهم". وليشير إلى التناقض العجيب مرة أخرى، أشار في موضع آخر من كتابه إلى أن "العرب متدينون جدا وفسدون جدا!!".

على كل حال، سنسمح لأنفسنا بالخروج من متاهات الوزارة وأقبيتها المظلمة وكواليسها المعتمة، جاهرين بأصواتنا المحبوسة، مُلقدين نظر من أطبقوا أجفانهم وأصموا آذانهم أمام جحافل بشرية عانت ولازالت تعاني ويلات سياسة الإقصاء والتهميش بشتى الأساليب غير الحضارية، البعيدة كل البعد عن الممارسة المهنية وعن قيم المواطنة، بل والبعيدة عن الإنسانية بمعانيها السامية.

== السيد المفتش :

في هذا المقام، لا يهمني الأشخاص و ذواتهم المركبة والمعجونة ثقافيا واجتماعيا وأيديولوجيا، بقدر ما تهمني رمزيتهم المهنية، ضمن الإطار العام والمساحة التربوية والقانونية التي يتحركون داخل حدودها. كما لا يهمني ما ينبغي أن يكون عليه المراقب التربوي طبقا للأدبيات المؤطرة لمهام المراقبة والتأطير التربويين، بقدر ما أنا مهتم بحال الممارسين لهذه الوظيفة وما هم عليه حقيقة، دون اللعب بعبارات يوتوبية لا وجود لها إلا في عالم الأرواح والميتافيزيقا.

ما زالت بعض الأسئلة دون جواب عالقة بذهني في ظل المتغير والحراك اليومي في رحاب المؤسسة التعليمية، ومن بينها، لماذا يرتضي قطاع محسوب على التربية والتعليم والإبداع والتواصل وكل شيء جميل ونبييل، ألقابا وأوصافا يربطها العام والخاص بعالم التحريات والرقابة والشرطة والسلطة والأوامر الرأسية؟؟ ولماذا يرتضي هذا الشخص اسمه الرمزي هذا مزهواً به، فرحا عندما يقترن اسمه بهذه الصفة "البوليسية"، بل ويستشيط غضبا عندما يُلقَّبُ بالمؤطر التربوي أو بلقبٍ مَوازٍ ومُشابهٍ؟؟

تكاد القواميس والمعاجم تُجمع على كون الصفة المشتقة من جذر "فتش" أو فعل "فتشَ" تعني البحث عن شيء مفقود والتحري عنه، ليكون المفتش تبعاً لهذا التعريف الباحث والمتحري عن الشيء المفقود والضائع والغائب في حدود مشهد أو مكان ما. الأمر الذي يفتح بابين للاحتمال، إما أن يُعِين "المفتش" _ عن حسن نية _ هذا المدرس على مفقوداته وحاجاته ومواطن قصوره وضعفه، وإعانتته على أداء مهامه في أكمل صيغة ممكنة؛ ولما أن يأتي هذا الرجل بذهنية مفتش الشرطة، في زي تربوي لائق بالتربية والتعليم، باحثاً عن النواقص والأخطاء، مُتَصَيِّداً العثرات ونقط الضعف، متجاهلاً حسنات المدرس ومواطن توفيقه.

في تجربتي الشخصية، وخلال سِنِيّ عملي إلى اليوم، يكاد الاحتمال الأول يكون نادراً كالكبريت الأحمر، بل هو كذلك حقا، وهي حالات جد استثنائية حدثني عنها بعض المدرسين من مناطق أخرى.

لبيقى الاحتمال الثاني مفتوحا على مصراعيه، وتبقى النماذج والنسخ الوافدة عيه المادة الخام التي شكلت السائد والعقل الجمعي المتحكم في هيئة التأطير والمراقبة بشكل عام.

إن الخلفيات السلبية الشكّلة لذهنية المراقب التربوي إزاء المدرس، هي في الحقيقة ما يجعل هذا المراقب ينظر من حيث يدري أو لا يدري للممارسين داخل الفصول نظرة استعلاء وتسامٍ، بل وأحيانا تمتد هذه النظرة إلى نظرة احتقار وازدراء واستهزاء وتقزيم، كأنما التنازل عن قيمته الرمزية والنزول إلى مصافّ المدرسين والتماهي مع أوضاعهم المعنوية والمادية والمهنية، تكسير للتراتبية السلطوية، وتهشيم لصورة "المراقب" وضعاف لهيبته التربوية... وتبعاً لهذه الفكرة المرجعية ولهذا المنظور سعت مراكز تكوين المفتشين إلى إنتاج آلاتٌ بُمِجَت على إعطاء الأوامر وضخ الانتقادات واقتفاء أثر الاختلالات والسلبيات، واستخدام سلطة الرفض ومراكمة التقارير؛ على أساس أن المدرس ينبغي أن يعرف حجمه الحقيقي أما شخصاً لى درجة، وأعلى معرفة، وأعلى سلطة، وأعلى مهنية. لا يناقش ولا يشكّ في ما يقول ويدعي، ولا يَنقُد، يَلَى ولا يَسأل، لا يعتذر من أحد!! . باختصار، إنه مخلوق لا يخطئ!! يَحُبُّ إذا مال يمينا ملنا معه، وإذا مال يسارا ملنا معه، عكس "بلوتارك" اليوناني الذي قال: " لا أحب الإنسان يميل حيثما ملت، ويتوقف حيثما توقفت، وينحني أينما انحنيت، ظلي يفعل هذا أفضل منه!!". فإذن، ومهما تطورت مهام المراقبة التربوية مفهوماً وممارسة، لاتزال هذه المهام منحصرة لدى قاعدة عريضة في البحث عن النواقص والأخطاء واصطياد مواطن الضعف والتعثر، والحط من الهمم والعزائم. ولعل الشاعر كان أبلغ مني قائلاً:

بَعْضُ الْوَرَى بَعِيوبِ النَّاسِ مُنْشَغَلٌ == مِثْلَ الثُّبَابِ يَرْاعِي مَوْضِعَ الْخَلِّ

وكذلك قول " قُنعِب بن أم صاحب":

إِنْ يَمَعُ وَاسْبَةٌ طَارُوا بِهَا فَرَحًا == عَنِّي ، وَمَا يَمَعُ وَ مِنْ صَالِحٍ نَفَنُوا

إن للتأطير التربوي دورا هاما ومحوريا في الممارسة التربوية بشكل عام، ومخطئ من بخص حقه وأنقص من أهميته، بل يكاد يكون الضامن الأبرز لرهان الجودة والارتقاء المهني داخل الفصول. طبعاً إذا تقمّص المؤطر التربوي دور الشريك والمصاحب الفعليين للمدرس، آخذاً في حسبانته الظروف المحيطة بهذا الأخير وعدم عزله من سياقه العام، ليكون الحكم والتقدير المهنيين يجمعان بين ما هو مهني صرف، وبين ما هو اجتماعي محض وبين ما هو إنساني سام، وليتنا حقاً نجد من يقبل هذه المعادلة.. من يقبل فكرة "التفتيش" كفكرة تجاوزت المقاربة البوليسية والممارسات التقليدية السلطوية في حيزها الضيق، وهي الفكرة التي اعتمدت _ في ظل التحرر الإنساني _ مقارنة التعاون والتشارك والتركيز على تذليل الصعوبات المطروحة لدى المدرس والتلميذ كليهما؛ إلى جانب تنبيه الغافلين والمقصرين في أداءاتهم المهنية أحياناً. أما من لا يزال منتشياً بإعطاء الأوامر السلطانية وباستدعاء التدخلات النازية في كل حين، وبناء حائطٍ حدودي عالٍ بينه وبين المدرس بدعوى التراتبية والأهلية المهنية والسلطة التربوية، فإنه لا محالة جاهلٌ بأننا قد خرجنا منذ قرون من عصور هولوكو وجنكيزخان والحجاج !!

== السيد المدير : ==

إذا كان جوهر التسيير الإداري بشكل عام تُشكِّله مفاهيم التنظيم والترتيب والانضباط والتنسيق والتوجيه والمشاركة والتحفيز والتواصل والحكمة، فمن المفترض ومن اللازم إذن أن تتجلى هذه المفاهيم في الأشخاص المنوط بهم تقلد مهام تسيير مؤسسة تعليمية، على شكل سلوكيات اجتماعية وأخلاق مهنية وأساليب إدارية وقيادية توازي المسؤولية الكبيرة الملقاة على عواتقهم؛ خصوصا أن مدير المؤسسة مدعو لتشكيل نسيج تواصلية متفرع مع خمسة أقطاب هامة: هيئة التدريس، والتلاميذ، وآباء وأولياء التلاميذ، والنسيج الجمعي للمجتمع المدني، والإدارة المركزية. الأمر الذي يستدعي استحضار المفاهيم السابقة واستدماجها باحترافية وبمهنية عاليتين، للنجاح في التوفيق ما أمكن بين الأقطاب الخماسية، وتقمص الأدوار المختلفة، حسب ما تقتضيه كل فئة من مستوى تواصلية.

فإن كان ما يقى مما يُفترض به أن يكون، ليس من المنظور اليوتوبي المثالي طبعاً، ولكن من المنظور الواقعي أيضاً، بما أننا نتحدث عن مؤسسة تعليمية تربوية تنتج ما يدخل في منظومة القيم الأخلاقية والتربوية والمعرفية، بل وتكاد تكون رهاننا المتبقي في معركة إصلاح المجتمع وتقويم اعوجاجاته؛ وهو المعنى المشار من قبل "جون ديوي" في كتابه "المدرسة والمجتمع". وبالتالي فالمفاهيم الإدارية السابقة والقدرة على ترجمتها ممارساتها لا يدخل قطعا في باب الترف والبريستيج الاجتماعي والإداري، إنما النجاح في مهمة تسيير شؤون مؤسسة تربوية يقتضي ذلك بشكل لازم. والآن حان وقت التعرّيج على الواقع الحقيقي لهذا المسؤول، وتسليط بعض الضوء على التشققات الغائرة المحيطة بأسواره؛ ولعل أول ما نشير إليه هنا، مسألة تعيين مديري ومديرات المؤسسات التعليمية، الذي ما زال وفيها لمعيار الأقدمية في مهام التدريس، بمعنى، كلما طال مكوث المدرّس بين جدران الفصل الدراسي، كان أصلح وأجدر بمهمة الإدارة من غيره، طبعاً إلى جانب معيار "حسن السيرة" كمُضدِّ قوي لمعيار الأقدمية !!

إن السؤال المنطرح في ذهن أي ممارس أو غير ممارس لعله يكون: هل تراكم الخبرة والتجربة في ميدان التدريس يعني بالضرورة تراكما في الخبرة الإدارية بأكلافها المختلفة؟! أو يكون: هل الاعتكاف الممتد لعقود تحت سقف الفصول الدراسية يعني مباشرة "مديرا" ناجحا؟!

إن الأسئلة المُخالِطَة والمُصاحِبَة بالتعجب والاستغراب عادة ما تحتاج تقديمات وتحليلات فكرية وفلسفية وتاريخية أحيانا، بل وتحتاج تدخل عقول عدة لتبلور إجابات محددة وشاملة؛ لكن ما طرحناه أعلاه، لا يستدعي كل ما قيل، بل يحتاج البكاء ورتاء العقول التي تعتبر نفسها تخطط استراتيجيا، وترى ما لا يراه الآخرون، بل وأحيانا ترى في نفسها المُطَّصَّ الوحيد مما نتخبط فيه من أزمات ومن تحديات. ببساطة، وبلا مقدمات، يُنتشَلُ المدرِّس المنهوك طوال فترة عمله بالدروس والتحاضير اليومية وبالصرعات الدائمة مع المتعلمين، ليوضع بين ليلة وضحاها على رأس مؤسسة تعليمية، ويُطالَب بتسييرها على أفضل نحو!! أليس من تحمَّل تشغييات الفصل الدراسي وأثقاله المختلفة لسنوات، في الحقيقة لا يسعه بعد ذلك إلا البحث عن سبل الراحة، وليس البحث عن أنقال وأحمال أخرى؟!

إن المدارس الآن وللأسف لا تستقبل على رأسها إلا لُقَى تاريخية أو تحفًا قديمة حسب تعريفات علماء الآثار، وحسب منطق "الأقدمية" المعتمد، ولا تستقبل أحيانا إلا أفكارا وسلوكات عسكرية موروثه من عهود سنوات الرصاص، بل وفي أفضل الحالات لا تكون المُصَلَّة إلا حفنة من عقد مرضية ونفسية واجتماعية يستحيل التعامل والتواصل معها إطلاقا!! خصوصا إذا تعلق الأمر بجيلين مختلفين متباعدين في حيثيات عدة (جيل المدير وجيل المدرس)؛ وفي الحقيقة لازلنا إلى الساعة نعاني آثار هذه الهوة السحيقة الفاصلة بين جيل الألفية الثالثة وجيل "تحف تاريخية" عاصرت الاتحاد السوفياتي وديكتاتورية "هتلر" و"تشاوسيسكو"، وعاشت زمن الاغتياالات والاعتقالات والاضطهاد المخزني المغربي، مما يجعلها نسخا طبق الأصل للنموذج العسكري السلطوي القابض على زمام الأمور ذات الطابع التربوية أيضا بيد من حديد!! مما يجعل المدرس من جديد مسقوفا ومحدودا بسقف أيديولوجي صلب، وبجدران من الأمزجة

الإدارية الكلاسيكية، التي لا تجيد غير إصدار الأوامر والوقوف على تنفيذها. طبعاً، لا يمنعنا هذا الوصف من الإشادة ببعض الكفاءات التي استطاعت بحكم تمرسها في العمل الجمعي النجاح في التسيير المؤسسي، مستفيدة من النظم الحديثة في الإدارة والقيادة، وكذا الدراسات السيكولوجية والسوسيولوجية التي جعلت الإنسان موضوعاً للبحث، خاصة في علاقته مع الجماعة. وقد تمكنت هذه النماذج فعلاً من التحرر من النمط السائد والخروج من جلباب الماضي بأحماله الثقيلة.

لم يتجه الغرب في الحقيقة إلى صناعة "القائد" وصناعة "المدير الناجح" سدى، ولم يُستحدث علم التنمية البشرية الواسع والشامل لهكذا موضوعات اعتباطاً؛ إنما دعت الحاجة إلى تنمية قدرات الإنسان ومهاراته التواصلية والخطابية والإدارية والقيادية بشكل عام، وكذا استثمار كافة طاقاته الخام الدفينة، عن طريق دورات تدريبية وتكوينية متنوعة وممتدة، تستهدف إضافة إلى ما قيل تشذيب الشخصية الإنسانية من سلوكاتها المنفلتة، وكذا تنقيتها ما أمكن من انفعالاتها الشاذة غير الحضارية. وإذا كان الأمر هكذا على الضفة الأخرى، التي أكدت باللمس وبناتجها الباهرة على مستويات التسيير الإداري بلوغها الجودة العالمية في الموضوعات القيادية، فالحري بنا تمرير كافة المقبلين لتقلد المهام الإدارية، خصوصاً في المؤسسات التربوية، من مختبرات تكوينية تروم تنمية ما أشرنا إليه سابقاً من مفاهيم إدارية، يفترض بكل مسؤول إداري الإبانة عليها سلوكاً وممارسةً تحقياً للجودة المطلوبة في سلم الخدمات. إذ كيف يُعقل تفويض إدارة مرفق عمومي حساس لشخص لا يتقن حتى فن إدارة الاجتماعات، وفنون التواصل المعروفة؟! وما عساه يك ون شكل مرفق حديث من حيث البنية والمعدات والأطر الشابة العاملة، مدارٍ ومسيرٍ بمنهج نازي في اتجاه واحد لا يقبل الأخذ والرد؟!!

إن تحديث الإدارة تحديث عقول وأفكار وممارسات وليست تحديث جدران ومعدات وبنيات تحتية، وإن كانت هذه الأمور كذلك من صميم التحديث فلها المثل الثاني. والمدير الجيد هو القادر في نظري على إعداد الفضاء الملائم لكافة العاملين بمعينته، أطراً وتلاميذاً ومجتمعاً مدنياً، والقادر على التوفيق بين

هذه المكونات كلها، وصَّوِّ كل اختلافاتها ومستوياتها في جو من التفاهم والترابط والاحترام؛ وهو المستعد دوماً للتعامل مع كافة العاملين أولئك بمنطق الشركاء والمتعاونين على إدارة شؤون مؤسستهم، لا بمنطق العبد والسيد، الرئيس والمرؤوس، الأمر والمُفَعَّد !!

المنطق الذي استطاع كبت وتجميد طاقات وكفاءات ذات مستوى راقٍ وعالٍ في مجالات الإبداع والابتكار والتنشيط، خصوصاً في صفوف المدرسين، مما يؤثر سلباً ويشكل مباشراً على الأداء المهني لبعضهم.

إن مقارنة "الأقدمية"، عكس ما ظنه "المخططون"، تقتل أكثر مما تُحيي، تكبت وتسجن أكثر مما تُحرِّر وتحفز، تمنع أكثر مما تمنح؛ باختصار شديد، مقارنة أثبتت الممارسة الميدانية فشلها الكبير على مستوى النتائج المتطَّاع إليها، وإن لم يتواضع "المخططون" ليعترفوا أمام الملائم أنهم كانوا يفكرون بمنطق الأديبة البريطانية "أغاثة كريستي"، مُتخذين نُكثتها المعروفة مبدأً وأساساً لاستراتيجيتهم "السديدة"، وهي القائلة بممازحة، بعد زواجها بعالم آثار: "عالم الآثار أفضل زوج يمكن أن تحظى به امرأة، فكلما تقدمت في السن، كلما ازدادت قيمة في عينيه!!".

أما إذا كان المخططون لا يريدون إلا ساعي بريد بين الإدارة المركزية وبين المؤسسة، وجاسوسا يخبرهم بكل ما يدور في بطنها، حينها يمكن الجزم بنجاحهم!

إذن، وبهذا الثلاثي (الوزير والمفتش والمدير)، وبين أمزجتهم المتباينة وقراراتهم الجرافية، يبقى المدرس تلك الحلقة الأضعف والحائط القصير الذي تمرُّ من فوقه القرارات والأوامر والنواهي من باب التنفيذ غير الرجعي، دون السماح لأي كان فتح باب النقاش أو النقد أو الدحض، على خلفية كون الثلاثي ذلك يمثل الإدارة العامة ويشكل رمزا من رموز القانون والسلطة، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تناقض الإدارة نفسها وأن تحاكم نفسها وأن تنتقد نفسها وأن تجلد نفسها؛ لتتعرز مرة أخرى جدلية الضحية

والجلاد. وعلينا، حسب ما يفرضه العقل الجمعي الإداري بثالوثه، الانتظار ربما لقرون إلى أن تسقط
الأصنام لتتمكن الفكرة من البزوغ بتعبير "نيتشه".

** التعليم قطاع غير منتج !!

لا تزال المدرسة المغربية ترزح وتترنح تحت إشكالات وتحديات تكاد تكون من صميم بنيتها الداخلية، وبشكل تخيلي فانتازي، نكاد نزعم أنها بُنيت بطوب وبلبنات من الإشكالات، الواحدة تعلق الأخرى، خصوصاً، المدرسة التي شاءت الأقدار أن تُوضع أساساتها في العالم القروي المنسي، مع الإشارة إلى حظ أختها المتعثر في الحاضرة كذلك. فبالإضافة إلى ما أشرت إليه باقتضاب شديد على مدى هذه الخواطر، من إشكالات تطبع مسار المدرس من مرحلة تكوينه وإعداده إلى مرحلة تعيينه واصطدامه بالواقع التعليمي كما هو، صادفنا كذلك مجموعة من الاختلالات طبعت المجال والحيز البعيد نوعاً ما عن رقعة الحجرة الدراسية، وأشير إلى المرافق الصحية المنعدمة وإلى المطاعم الفقيرة وإلى ... طبعا لن أستفيض في تبيان أهمية المرافق تلك، لأن الشمس لا تحتاج إلى دليل، ولأن الوظائف الإحيائية المرتبطة بالجنس البشري فطرية، ولا حاجة لإسالة الحبر لتأكيد أهميتها. أما وقد تم إهمالها_ أي المرافق الصحية والمطاعم_ من لدن الوزارات الوصية المتعاقبة، فربما كانت أدرى منا بمصالح المتعلمين، وترى الأمور بعين ثاقبة رؤيئة بعيدة المدى، ولا داعي إذن إلى صرف ميزانيات ضخمة على وجبات غذائية وعلى دورات مياه لا طائل خلفها، فهي أمور بيولوجية فقط !!

وأمام هذا الواقع المُخجل، تكون المدرسة في ظل الذهنيات التي تسير وتقف على شؤونها الداخلية على المحكِّ وعلى كف عفريت كما يقال؛ ذهنيات زمن الروبوتيك والسموات المفتوحة والاتصال السريع الذي ألغى الحدود الجغرافية، وفيّةً لمتحجرتها الفكرية الدائمة التي تقول: " التعليم قطاع غير منتج !!".

عجيب حقا، أن لا يكون إنتاج أجيال بشرية متعلمة ومثقفة إنتاجا في حد ذاته، وعجيب كذلك أن لا يكون إنتاج شعبٍ صُفِّ الأمية والجهل إنتاجا أيضا !! ومن العيب حقا، والبشرية ارتقت إلى ألفيتها الثالثة أن ننبري لدحض وهم فكرة لم تنطق مثلها حجرة من قبل، حتى ولو عدنا إلى العصور الإغريقية واليونانية الأولى، مرورا بالعصور الوسطى الأوروبية المظلمة، بل حتى ولو تحرّينا الدول الأكثر فقرا وتخلفا عبر

العالم؛ فلن نجد من يستهين ويزدري ويُقَرِّم شأن التعليم والتعلم أكثر منا؛ بل ولن نجد من حفر لهما قبراً ودفنهما بلا كفن سوانا !! لكن، هل لَوَيْنا عنق الكلام بما سبق ومددناه إلى أن بلغ عتبة المبالغة حقاً؟! لا زال منطق الإنتاجية الموروثة من زمن "فريدريك تايلور" و"هنري فورد" بداية القرن العشرين يلقي بظلاله على كل مسير أو مسؤول عن قطاع ما، وقد تكون مبادئ النظامين "التايلوري" و"الفوردي" وسيروورتاهما اللتان تستهدفان رفع معدلات الإنتاج، وإنجاز المهام في وقت مضبوط، تحقيقاً لأرباح مهمة، مبادئ مسوغة ومبررة بل ومنطقية إلى حد بعيد، كون الوضع هنا يتعلق بتسيير شركة إنتاج ومقاولة تجارية ربحية، لا يهتما في آخر المطاف سوى تسويق البضائع، وإيصالها للزبون مقابل ثمن مُزجٍ؛ ومن الطبيعي أن لا تخضع هذه السيرورة (التجارية) لأية اعتبارات أخلاقية أو اجتماعية، مادامت تتغيا السيطرة على رأس المال. فإن جاز "البيع والشراء" داخل رقعة المصنع والمتجر، فلا أظنه يجوز بأي حال من الأحوال في "المصانع" التربوية والمؤسسات التعليمية، التي ما فتئت في ظل وضعها البائس تنتج رأس مالٍ معنويًا، وعقولاً مفتوحة خلاقة مبدعة تفكر وتُحاجج وترسم ملامح المستقبل بهداياها وتخطيطها وبتسخيرها لكل إمكاناتها في شتى مناحي الحياة. هذه العقول بالذات ما يصنع نهضة الأمم وركي الحضارات الإنسانية، وهي ما يجعلنا حقاً نخرج من دائرة الحيوانية والبهيمية ونطاق الهمجية والفوضى، فالإنسان كما قال الفرنسي "ألبير كامي" هو الكائن الوحيد الذي رفض أن يكون حيواناً. فكيف لا يكون التعليم منتجاً إذن وقد سمح لبعض العقول أن تصنع المستحيل؟!!

فلندع أنظمتنا إذن تردد ما يحلو لها، ولندع العقل السياسي يجثم على كل إلماعة مضيئة، ولندعه يطرد كل المتتورين وكل الداعين لصناعة الإنسان والفكر والحضارة، طبعاً لأنه _ أي العقل السياسي _ لا يجيد سوى إنتاج السلطة والتفكير في صناعة الهيمنة بتعبير "محمد الجابري"، ولأننا بحق نعيش الآن تداعيات أزمة الأفكار في العالمين العربي والإسلامي، من جهة من حيث غرائبيتها وفقرها، ومن جهة

أخرى من حيث قَدَّتْهَا وشُحُّهَا؛ عكس ما كان يدعو إليه "عباس العقاد" في كتابه "التفكير فريضة إسلامية".
ولندع الجهل في آخر المطاف يزداد بمتوالية هندسية والعلم بمتوالية حسابية كما قال أحد الرياضيين.

"التعليم قطاع غير منتج" رصاصة أطلقتها الحقائب الوزارية وسمحت لها باختراق صدر التعليم العمومي بشكل خاص، لتفسح المجال أمام التعليم "الخاص"، أو التعليم "المُقاوِل" المُدْرٍ للدخل، الذي كان و لا يزال ينتج رؤوس الأموال الضخمة؛ طبعاً هذا الشق من القطاع التعليمي ككل، بالرغم من مظهره الخارجي اللامع والمتلألئ، لازالت مخرجاته أيضاً تثير الشفقة. لكن هذا لا يمنع انكباب ولهف أرباب المال على الاستثمار في ميدان التربية والتعليم بعد الإجماع شبه التام على فشل المدرسة العمومية وسقوط جدرانها على أبنائها الفقراء؛ خصوصاً والدولة في راهن حالها بدأت تنحو منحى خصوصية مؤسساتها العمومية، وتشجع كل المبادرات الرامية إلى تخفيف كاهلها المثقل _كما تدعي_ بالمصاريف التي تسببت في إفراغ صناديقها!! بل وتسعى جاهدة على ما يبدو إلى إرساء أنظمة التعاقد التي تحررها من كل التزام ومشروطة مع الموظفين الساعين إلى ترسيم دائم.

ولن نبالغ ربما لو قلنا، بعد النوايا المعلنة هذه، أن الدولة ندمت أشد ما يكون الندم على من

تسللوا إلى نظام الوظيفة العمومية وحطوا بوظيفة دائمة !!

خلاصة القول، إن تفضيل واستحسان الدولة إنتاج الطماطم والبطيخ على إنتاج الخبرات والكفاءات والعقول المستتيرة، لهو الإفلاس الفكري الحقيقي على أصعدة شتى، وهذا ما يعيد إلى الأذهان دعوة "إيفان إيليش" إلى إغلاق المدارس بصفة نهائية، مادام الشارع ينتج المبدعين أكثر وأحسن منها !!
وحال المدرسة اليوم يؤكد ويثبت نوايا الدولة الحقيقية تجاه قطاع حيوي لا تقوم قائمة الشعوب والأوطان إلا بإيلائه الأهمية القصوى، لا بطمسه وقتله، واغتيال كل فكرة نيرة حية بأخرى شيطانية ظلامية هدامة؛
عكس مجرى كل مجتمعات المعمور، وعكس حركية التاريخ، بل وعكس الحياة نفسها !!

إن الاهتمام بالعقل في التعليم كما قال "نيتشه" ما جعل أوروبا تبلغ ما بلغته اليوم، وهذا الكلام طبعاً يحمل جانباً هاماً من الحقيقة ومن الواقعية، فمع فتح المجال الأرحب أمام العقل ومع تحريره المنضبط، نظف بطاقة مبدعة خلاقة قادرة بلا شك على صناعة ثورات علمية واقتصادية وثقافية؛ غير أن التعليم لا يستطيع بمعزل عن السياسات العامة المتبناة في البلدان الأوروبية أن يصنع أوروبا الحديثة.

التعليم وحده لا يكفي أمام مطرقة سياسية مناهضة، تسيح ضد التيار، وتحاول ابتلاع وإقصاء كل ما من شأنه صناعة وعي المواطن وفتح آفاق أخرى أمامه تمكّنه من التحرر من المعيش اليومي البيولوجي إلى المساهمة الفعّالة داخل مجتمعه، حفاظاً على دينامية تشفع له أمام الركب الحضاري والدينامية العامة للمجتمعات من حوله. كان على "نيتشه" أن يقول بنوع من العمومية، مادام الأمر يتعلق بدول أوروبا وليس بألمانيا وحدها، "إن الاهتمام بالتعليم في السياسة، ما جعل أوروبا تبلغ ما بلغته اليوم". وهي حقا كذلك، حضارية لا تخشى سياساتها من تعليم مواطنيها ثقافة الحقوق والواجبات، ولا تخشى من وعي ينضج وينمو يوماً ما ليصير غصة في حلق الدولة، إذا ما مالت إلى انتهاك حقوقه، أو إذا عجزت عن بلوغ وتحقيق انتظاراته؛ كذلك لا تخشى من مواطن تتولد لديه غدا ثقافة الاحتجاج والرفض والانتقاد، والمساهمة في تصحيح مسار التوجه العام لوطنه، بل السعي إلى تغييره الجذري إذا اقتضى الأمر ذلك.

أوروبا لم تضع أبنائها داخل صناديق سوداء، ولم تجعلهم داخل زنازين الفقر ومتاهات اللهث خلف كسرة خبز وشربة ماء؛ أوروبا لم تضع سقفاً لأحلامهم ولم تجعل أقصى متمنياتهم تأمين ما يضمن استمرارهم في الحياة. باختصار، قدمت لأبنائها أحلامنا، فقّموا لها بالمقابل كل شيء، وليست مطرقة تنظر إلى شعوبها على أنها حفنة مسامير بتعبير "أبراهام ماسلو".

لن أتوسع وأستطرد في المقارنات غير الطبيعية بين أحوالنا وبين أحوال الآخرين في الضفة الأخرى، فلعل الإغراق في هذا ينسينا واقع جراحنا وآلامنا، ومقابرنا الفكرية والثقافية. إذ لا يجدر بنا أن نتناسى خبزنا اليابس لنسيل اللعاب أمام شطائر وهمية !!

في الحقيقة، وأنا أرفف سطور خواطري هاته، لم يزيلني قط سؤال فيه نوع من الاستغراب، نبتَ في عقلي منذ فترة التكوين بالذات، وهو المتعلق بعموم العالم العربي، وليس مقتصرًا على بلادنا فقط، وهو باختصار، لماذا نتلف دوماً إلى استيراد كل ما أنتجته الدول الغربية والأوربية في مجالات التربية والتعليم، ونسعى جاهدين إلى إنزالها الأعمى على مخططاتنا التربوية العذراء، ولا نسعى بالمقابل إلى استيراد أنماط التفكير وأنماط الثقافة اليومية منها، وكذا استيراد النظرة العلوية والعناية الفائقة التي توليها هذه الضفاف إلى موضوعات التعليم والتربية؟!

بعض أطراف الجواب طبعاً جاءت في سياق سابق من هذه الخواطر، ولن نفتح ملف العقل العربي من جديد، فلقد أنفق المفكر الراحل "محمد عابد الجابري" في نقده لآليات وأنماط اشتغال العقل العربي ثلثي عمره تقريباً، خاصة في سلسلته الرباعية "نقد العقل العربي"، بأسطاً رؤاه ضمن عناوين "تكوين العقل العربي" و"بنية العقل العربي" و"العقل الأخلاقي العربي" و"العقل السياسي العربي". ولا أنسى ما دمنا في سياق التربية والتعليم، كتابيه "أضواء على مشكلة التعليم بالمغرب" و"من أجل رؤية تقدمية لبعض مشكلاتنا الفكرية والتربوية"، المؤلفان في سبعينيات القرن الماضي؛ مجهود للأسف لم يبرح مكانه ولم يغير من معالم حالنا شيئاً، رغم كل النداءات والرسائل التي كان الراحل يرسلها وينشرها وطنياً وعربياً، لكن، كالعادة

لم تجد الرسائل من يفتحها و يقرأ مضامينها وفحاويها، شأنها شأن كل رسائل المثقفين والتنويريين في بلادنا العربية. ليبقى الفكر وليد بيئته كما قال "فرويد"، بل وسيظل حبيس بيئته أيضاً !!

== عودٌ على بدء .

مضت إحدى عشرة سنة بين الجيئة والذهاب إذن، كأنها طيف سريع لا تكاد تبصره حتى ينفلت، سنوات تشابهت فيها الأيام، فصار العمر المُفَقَّ في منفانا هذا يوماً طويلاً وممتداً في زمنه البطيء..أجل، فكلما سافرنا ومضينا بسرعة فائقة تباطأت أزماننا بشكل غريب، أو ليس هذا ما علّمنا إياه "أينشتاين" في نظريته النسبية؟..كانت أيامنا متكررة في عمومها وفي تفاصيلها، في مَرِّها الطافح وفي حُلُوها النادر، مساءاتها كصباحاتها، شمسها ونجومها وفصولها واحدة. هي توائم حقيقية مرت أمامنا، لم نكد نميز منها بين أول الأسبوع وآخره، بين مبتدأ السنة ومنتهائها. لم نكد نميز الصغير من الكبير، والعاقل من المجنون، والصديق من العدو، الصواب من الخطأ. كنا ربابنة مضوا بسفائنهم بين ضباب كثيف، وجِهتهم معروفة سلفاً، لكن أعينهم ضلّت الطريق، ومع كل هذا مضت السفائن حسب إملاءات الأجهزة الصماء والمحركات المبرمجة إلى مرسى ما.

لم نكن نفهم ما يحدث، ولم يكن بالأحرى مسموحاً لنا أن نوغل ونخترق بأفهامنا وعقولنا الأحداث اليومية المركبة والمصنوعة بشكل دقيق. كنا مجبرين دائماً أن نخضع فهومنا لشروط فهم أخرى كما أوصانا بذلك الفيزيائي "نيلز بوهر" منذ عقود.

اختصاراً، كأنما أريدُ لنا أن نبداً في حياتنا السائرة كما كانت الأجيال التي تلت الجيل الأول من "القرود الخمسة"، الساعية إلى الهجوم على كل قرد بادر إلى أكل الموزة دون مبرر منطقي أو سبب وجيه يُسوِّغ الهجوم !! هكذا بالضبط، ومجنا على فعل أمور وعلى الانخراط في تفاصيل لأننا ببساطة ينبغي أن نقوم بذلك، ولأننا قطعاً خلقنا لنؤدي هذا الدور وكفى !! وكلما تجرّد أحداً واستثنى نفسه من عقلية القطيع تلك، وجانب المسار القواليبي الجاهز، أُعيدت برمجته وأُعيد تركيب جينومه النووي حسب ما يقتضيه الاتجاه العام الموحد والمسار المحدد سلفاً من المهد إلى اللحد، ولعل "سقراط" كان صادقاً في قوله وهو يستعد لتجرع السم: "ويل لمن سبق عقله زمانه" !!..طُرُقنا كما يجب أن نفهم طرق بلا رصيف، تماماً لو

كنتَ منطلقاً من مدينة "شاع أن" الصينية سالكا طريق الحرير، فإنك لا محالة بالغُ مدينة الإسكندرية في منتهاه. فالبداية والنهاية محددتان، ومسارنا محدد قبل أن نولد !!

لا زال مشهد يومي الأول بالمدرسة ملتصقا بذاكرتي وماثلا أمامي، كأني في السادسة من عمري أشدو حروفي الأولى محاولا ترويض لساني على التفوه بها بشكل سليم، ولازالت صورة معلمي الأول بلحيتة الكثة تنتصب أمام ناظري كلما جرتني الحنين إلى السفر إلى الماضي، متذكرا وقفته أمام اللوح الخشبي الأسود بوزرته البيضاء، مردداً قول القائل :

لَوْلَا الْمَطْمُ عَاشَ النَّاسُ لُكُهُمْ * == مَثَلُ الْبَهْمِ إِثْمٌ لَا عِلْمَ وَلَا آدَبَ

لعله كان يُطمئننا آنئذ، أنه خُلق ليبدد سواد جهلنا وفوضى جوارحنا؛ هكذا على الأرجح كانت رسالته، لكن لم يكن بوسعنا تشفير هكذا رسائل. كان كل شيء بالنسبة لنا، الملاذ والملجأ والحضن والوالد والقُدوة وَعَظْمَنَا الْمُفَكَّر.. كان سَقَّ كل شيء في عقولنا الصغيرة، اختصارا، لأننا لم نكن نعرف أحدا سواه.. كان القادر على حمايتنا من كل تهديد خارجي يمكن أن يتهدِّنا من كبير سنٍّ أو قوَّة، وإلى جانب ذلك كان علبة المعرفة التي تمنَّا بمعارف الكون كله، بل لم يكن يساورنا شك في كونه القادر على الإجابة عن كل الأسئلة، لأن صاحب البياض ببساطة في نظرنا الصغير لا يمكن أن يخطئ !!

كانت هذه الأوصاف بديهية ضمن حصيلتنا المعرفية الضئيلة ومسلّماتنا الدوغماتيكية؛ هكذا كان المدرس، العمود الثابت الراسخ الذي كان قادرا وبحق على تعديل ميل سائر القيم المجتمعية المنفلتة والمتطرفة ، وزرع أخرى تنماهى مع القيم الأخلاقية السامية والمبادئ الدينية السمحة. قد كان الأب الروحي في مجتمع احترام رأيه وأنصت لكلامه وأعطاه من التقدير والاحترام ما كان يُعطى لأئمة المساجد. كان باختصار صاحب الملاحم الروحية والتربوية والأخلاقية؛ كان أسطورة بكل المقاييس...

سوف لن أغرق كثيرا في استعمال فعل (كان) ،محيلا على ماضٍ لن يعود قط، وسوف لن أدغدغ ذاكرتي أكثر من هذا ،لأن دوام الحال من المحال.

بعد مزاولتي لهذه المهنة بشكل مباشر، وبعد الاقتراب حقيقة مما ترزح تحته من تحديات وإشكالات وعشوائية مطلقة، يمكن القول، بل الجزم بأن رمزية المدرس باتت على المحك، إذ لم يعرف هذا الأخير حالا أسوء من حاله اليوم، بالرغم من بعض النكسات التي تعرض لها في ما مضى إبان صراعه مع الأنظمة الحاكمة.

والحال مقصود بلا شك على رأي الراحل "المهدي المنجرة" قائلا: "إذا أردت هدم أمة فعليك بهدم التعليم، وإذا أردت هدم التعليم فعليك بهدم المعلم !!".كلام صائب، بل حقيقة نعيش تداعياتها بشكل ملموس كل يوم؛ وهذه العشرية التي أمضيتها في كنف قطاع التربية والتكوين أكدت لدي بكل المؤشرات التي بسطت فيها الحديث، من فترة التكوين إلى الآن، وفي ظل الذهنيات وأنماط التفكير الجاثمة الآن على هذا القطاع الحيوي ببلادنا؛ أننا في وضع يدعو إلى الشفقة والرتاء، وضع مُزِرٌّ لا نَحسد عليه. والأدهى والأمرُّ أن سائر المؤشرات تدل على أننا لن نبرح وضعنا الخطير هذا حتى على المدى القريب أو المتوسط على الأقل، وليس هذا من باب التشاؤم والنظرة السوداوية للغد، إنما الباعث على يقيني سيرورة أنماط التفكير الموزعة على كراسي الحكومات المسيرة لشؤون البلاد، التي لا تُفَرِّخ ولا تستنسخ إلا نفسها، ضاحَّةً نفس دماؤها الفكرية والسلطوية والتسييرية في عروق وعقول الأجيال المتعاقبة، لتبقى هذه المتوالية تتكرر إلى أجل غير مسمى، حينها تعود المياه إلى مجاريها وتنشأ عقول أخرى وتفتح عيون أخرى قادرة تنظر إلى الأمور من زاويتها الطبيعية واللائقة؛ فتنولد أجيال تضع هذا الوطن في السياق الحضاري العام للتقدم والتطور بين مجتمعات المعرفة المحيطة به. وبذلك نكون قد أنصفنا "التعليم" وأعدنا له بعضا من اعتباره وسمعته المسلوبة والضائعة، وستتخذ العدالة مجراها الطبيعي بالرغم من كون العدالة المؤجلة ظلُّما عاجلا. آنذاك فقط يتبوأ "المدرس" مكانه اللائق به والمستحق، ليصدق فيه قول "خليل تقي

الدين " رافعا همته : " أيها المعلمون يكفيكم شرفا أن العالم صُنِعَ على أيديكم .."؛ وهذا صحيح إلى مدى بعيد، لأنه بمجرد أن تكون مربيا كما قال " ج ج روسو " فإنك إما والدٌ، ولما أنك شيء أكبر من الإنسان !!

تارودانت (المغرب)

2013 _9_25

وبإذنه تعالى تتم الصالحات

Ouhssine1@gmail.com

مدرس تحت الصفر



ouhssine1@gmail.com

مدرس تحت الصفر، قطعة من حياة قضيتها ومازلت أفضيها بين الحجر والشجر، وإني _ للأمانة _ تقشفتُ بعض الشيء فيما كتبتُه، ولم أبح سوى بما يناسب مقاس الحرية الممنوحة (...); هي تأملات حائرة بسطتُ فيها مشاهداتي المتأرجحة بين بؤس الواقع وواقع البؤس، ملقيا الضوء على قطاع حيوي أفلس أو أوشك على ذلك، بالرغم من مساحيق التجميل الدائبة على تزيين وجهه الرسمي.

الناشر

مكتبة ومطبعة الوسيم الحديثة

غزة 9023621 - 2880404